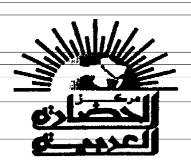
فوزية مهران

فنار الأخوين

قصص قصيرة



الكتاب : فنار الأخوين
قصص قصيرة

الكاتب : فوزية مهران

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٣

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٩٩٦٢
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-465-4

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر



فنار الأخوين

قصص قصيرة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .



رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

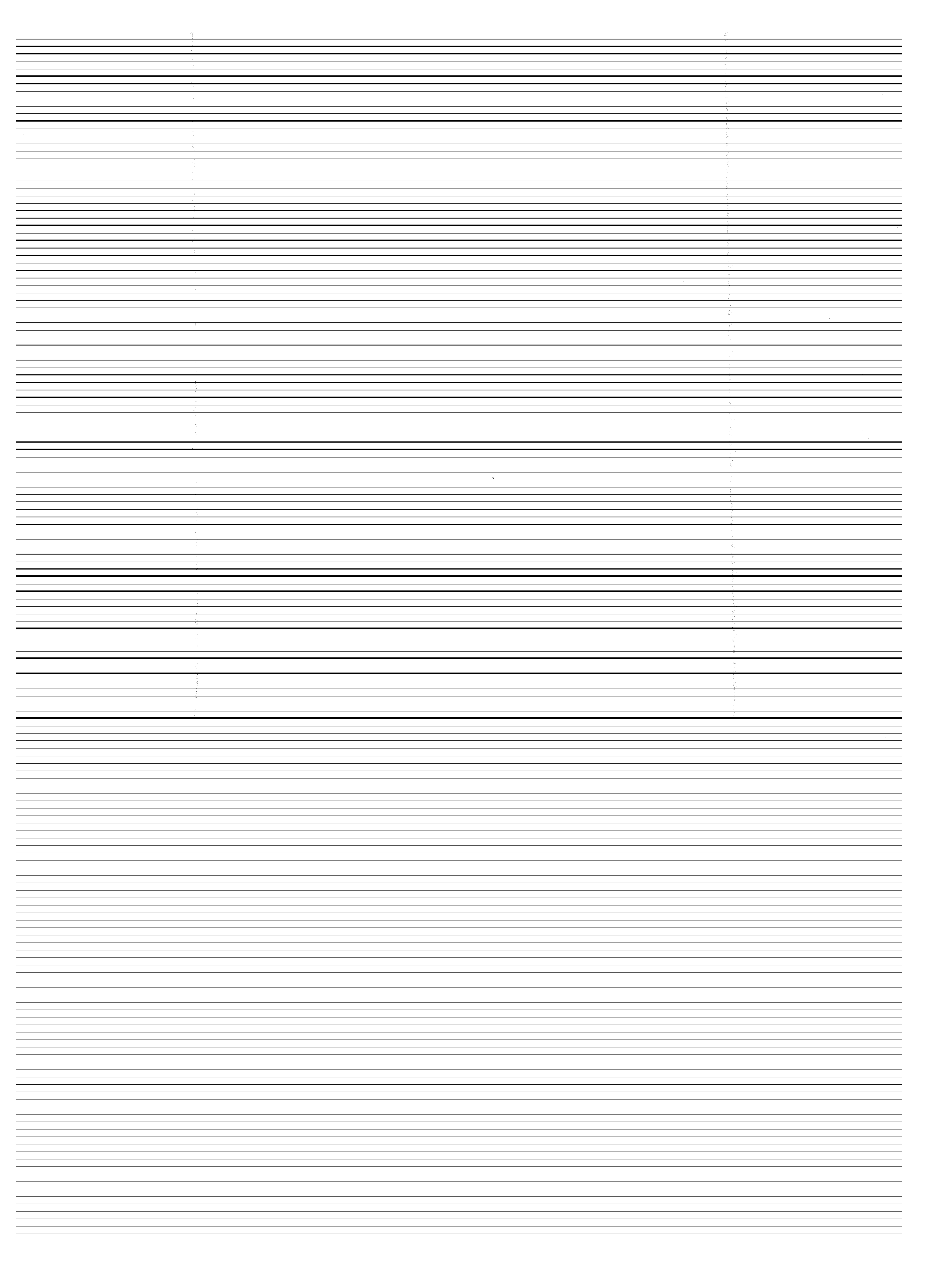
مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

إهداء

ضوء المنار غاب عنا..
هوى إلى البحر قلبي..
تناثر الرذاذ دموعًا قانية
تلقاه تحت الماء فوق راحته
نور خفيض شع بين الحروف
والذكريات..
أشرقت الشمس من جديد..
أحلم بك.. بالربيع وبالأصدقاء..
بلادي أحملها بين الكلمات..
(وأنت إذ تكتب بصدق تتداعى
بالصدق لك سائر الأوطان.)
أشهد سيرة الماء..
أحلم بك.. بالربيع وبالأصدقاء.

فوزية مهران



موسيقى قاع كوب

أعادت تلك الدائرة الخزفية - الموسيقى إلى بيتنا.

عفواً - عندما تعزف لابد أن أنصت أتصل بنبع النغم وأسبح فوق الماء.

(تأتيني صورته في البحر.. يحمل الصغيرة - يغوص بعيداً عنها.. يعود إليها ماداً ذراعيه.. تتعلق برقبته - تصرخ.. تفزع.. تضحك - ويستمر في المرح معها وتدريبها. تتجسد الصورة حياة. تلتمع قطرات الماء.. تتحرر ذراتي وتستبق - يأتيني صوته:

«كي تذكر أباها دائما - وتعرف كيف تستمتع بالحياة».

- أن يفتح الإنسان ذراعيه.. ويضم بحره.. يسع صدره انعكاس الضوء والموج والشجر فإنما يحتضن الحياة - أجمل ما في الحياة - وأجمل ما نموت من أجله.

أعادت لي الموسيقى البهجة والمرح. حررتني من الهموم.

بدأت صداقتي بها عندما حاولت اختيار هدية لابنتي من المدينة ذات التاريخ - حاضرة البحر وشاهدة على الزمن - تغادرها الذكريات الآن، تشحب أنوارها ويجردونها من

كبريائها، يرون فيها مجرد سوق لبضائع مستهلكة.

سجلت ابنتي قائمة بالطلبات عندما سمعت بأنباء حضوري المؤتمر هناك - وجدتها في اللحظة الأخيرة - الهدية الرمزية - كوب موسيقي - وعندما تميل لتشرب منها تصدح الموسيقى - تترقرق دمعًا على المدينة الشهيدة (ضاع منّا مفتاحها.. وغلقت دوننا الأبواب).

قال صديقي: «كانت ساحة البحر مليئة بجثث الشهداء - كنت جريحًا بينهم». جاء لهمة. حطموا الكاميرا وضلوعه. أخذ يزحف حتى وجد عجوزًا تبحث عن ولدها.. بين الجثث. أشار إليها لتأخذ الفيلم الذى خبأه في صدره. توقفت المرأة لحظة، أدركت ما يريد.. أخذته وخبأته فوق قلبها - وفي الصباح كانت صور العدوان على صفحات العالم.

المدينة تشهد البحر - مستباحة ومدينة مفتوحة الآن - اخترت منها الكوب الموسيقى. امتعضت ابنتى أمام هديتى قبلتها ربما حياء وتأدبًا. قالت بصمت: أهذا ما حملته لى من مدينة العطور والأزياء وأدوات الزينة؟..

يبدو أنها عاملتها بخشونة - مثل مدينتى - فسقط قاع الكوب الذى تكمن به دائرة الموسيقى.

خفق قلبي عندما وجدتها ملقاة على الأرض - تئن في ضعف. حملتها برفق.. وسدتها أعلى صف الكتب في المكتبة.

بضاعتنا ردت إلينا - هذا كيل يسير. تعود إليّ هدية مدينتى ووهج الذكريات. وحديث البحر وإيقاع التدريب والمواجهة.

هى بعض نفسى.. جزء من تكوينى الداخلى.. مضغة من

قلب الوطن..

وحضن الشهادة. جنين من رحم الأم التي صدت عن مصر ويلات القتال.

وأحاطت بي موجة منعشة لوجودها.

موسيقاها تنبض بالشجن.. تجعل الحزن نبيلاً وجميلاً.. تحمل حركة ذراعيه وتدفق الحياة.. يرتفع شراع الصبر عاليًا، وندور في حوار معًا.

دائرة الخزف الموسيقية أصبحت صديقتي.. يتردد اللحن عندما أفتح المكتبة.. يصدر الصوت مضيئًا وحانيًا ـ لست وحيدة..

تضمني.. مثل تحية الصباح لديه.. هذا خلق جديد.. فلنغتنم.

لا أدرى كيف طورت من نفسها وعملها ؛تعزف عندما أمر من أمامها. أضيء النور.. أفتح النافذة.. تتبع حركتي وتعلن عن وجودها.

أحيانًا أكون في عجلة من أمري، لكني أتوقف عندما تبدأ.. عليّ أن أنصت حتى تنتهي.

تألقت قوى العزف لديها.. تستدعيني عندما أكمن بالداخل. أنهض من أجلها ـ أخرج إليها. أخذت توحي إليَ بمشاعر جديدة ورؤى.

تتداعى صفحات من مشاهد مدينتي ـ وساحة الشهداء. زميلي يقاوم الموت لأداء مهمته ـ يخبئ الفيلم الشاهد على المعركة، يخفيه قرب قلبه وفوق جرحه. أحس بها نفسًا

بشـرية.. روحًـا قـريبـة ـ تصـحبنى لحظات عـملى وفكرى. تستجيب للضوء ..لأى ذبذبات غير مرئية.. من وإلى البيت تعزف نوبة صحيان ووداع. تجسد صورته أمامى. تستدعى لعبة الماء وتدريب المواجهة ـ صديقتى شفافة محلقة.

أعـادت الدائرة الخزفيـة الموسـيـقى إلى بـيـتنا.. وصـلة أمل ونور. لم يضع مـفـتاح المدينة.. نجده فى صدر جريح. فى همة امرأة، فى يد طفلة تمرح فى البحر. يحفر الأب صورته وحبه فى ذكرياتها، يعلمهـا العوم.. درس الاستـعداد دائمًا ـ ولتـعرف كيف تستمتع بالحياة.. وتحتضن دفقة من بحر الوطن.

سيدى الغريق

تقف فى قلب العالم . البحر يمتد أمامها إلى ما لا نهاية . تشعر بحنين . البحر سرها ومرآتها . أخذ منها رجلها - عاد الرجال بدونه ذات ليلة - تزوره كل صباح - تحكى له ، وتسمع صوته . تحس بأنفاسه . تفرد طولها أمامه . تكشف عن ساقيها وتنزل إلى الماء . يداعب وجهها . . يلثم وجنتيها . تستسلم لدفء اللمسات والذكريات . تنتشى بحضن البحر . وجهها للسماء . تذكر ساعد زوجها . . تلتقط شعاع الشمس . تقف فى مواجهة الضريح . تقرأ الفاتحة .

لابد انجذب زوجها لسيدى الغريق . سكن بجواره . ذهب وحيداً غريبًا مثله . يومها قال الرجال : كلنا لك . مات وهو يدافع عنا . طيرتنا موجة عالية من على المركب . . أخذتنا على غرة . تبعثرنا . ظل يصارع الموج حتى دفع بآخر واحد منا . غيبته موجة أخرى عاتية .

من يومها أقاموا لها مكانًا عاليًا . لم يقترب منها أحد . لم يطلبها رجل للزواج . مازالت شابة ، ريانة الجسد ، يموج قلبها بالأشواق . زفوها إلى البحر - فمن يجرؤ على أخذ مكانه ؟ ! لا أحد مثله .

لا أحد يذكر بالضبط متى رسا سيدى الغريق على الشاطئ!
هل جاءت العشش وأحاطت به؟! أم أنها كانت موجودة وبنوا الضريح فى مواجهتها؟!

يتعلق الجميع بشاطئ الحواديت. منثورة بينهم الحكايات مثل الأصداف والودع، مثيرة وخالبة للب، مغامرات حب وغرق وهرب.. وكرامات. وقيل يمشى فوق الماء وتتبعه الأسماك ضاحكة.. يجعلها تتقافز فى الشباك.. يعيش بينهم. يحلفون به ويدفعون به غدر الأيام، يقدمون له النذور وتلف النساء الباكيات حوله سبع مرات فينجبن. ولابد أنه من أولياء الله الصالحين. قذف به اليم على الشاطئ.

وقد أمر الله بستره ونجاته من أسماك القرش ووحوش البحر.
ومن يومها والخير كثير والرزق وفير.

سموها «أم الرجال». وهى فى عزها فتية وعفية. كلمتها تمشى على الجميع. تقوم بدور القاضى والمفتى والحكيم. تستحضره دائماً فى ذهنها قبل أن تحكم. تستوحى كلماته وأفعاله. وتنهى حديثها دائماً بعبارة: «وحياة سيدى الغريق فى نومته وغربته..». فيعرف الجميع أن كلمتها: عدل وقانون وفى مصلحة الجميع.

***

تفقد المحافظ «عزبة الصيادين».. أشار متأففاً عشوائيات قذرة. أكمل وهو يعقد ما بين حاجبيه: رائحة زفارة ـ مستنقع فظيع.. أف. طهروا المكان، احرقوا العشش. ظهر تابعه. تمام يا أفندم. عندك حق. انحنى والتوى: لكن سيادتك الصيادين

يروحوا فين؟

-أى مكان .. المهم. بعيد عن البحر.

-وسيدى الغريق؟

-سيدك ده إيه! دى خرافات وتخلف..

هدّوا الضريح. ساووه بالأرض.

اصطكت ركب الصيادين المحيطين.. اصفرت سحنهم..

«أعوذ بالله من غضب الله» «كله إلا الضريح».

تعالت الهمسات: ولى صالح وله كرامات .. والموت له حرمة.

تشجع مهندس شاب: يعنى الميت ولا الحى.

صاح المحافظ: ميت إيه وحُرمة إيه؟ تلاقوه مجرم ولا مهرب وغرق. وأكيد لما دفنوه لم يخبروا السلطات.

المهم هدوا عشته الأول. والناس بعدها ترحل على طول.

جاء بلدوزر المحافظة وعمال الهدم.

كان الرجال فى البحر. خرجت لهم «أم الرجال» معها النساء والعيال. كان شعرها محلولاً. لم تتمكن من تغطيته. أمسكت بجديلة من شعرها.. أقسمت بقسمها: «وحياة سيدى الغريق فى نومته وغربته. الكلام ده لا ينفع ولا يكون. وقطع إيد اللى يقرَب منه.. إحنا قدامكم أهو.. اللى يقرب نصوره قتيل».. تحتد:

«البلدوزر يمشى فوق جثتنا الأول وبعدين تاخدوه».

رددت النساء بعدها الكلمات. وقفن كالبنيان المرصوص.

وفى المقدمة أحاط بها الصغار.

اشتعلت بالغضب: «جرى إيه فى الدنيا.. فيه إيه يا ناس! كده بإشارة.. تهدوا بيوت وعيشة وحتى الميتين! خافوا ربنا. ده شهيد».

تقطع صوتها بزخات الدموع. كانت تدافع عن رجلها مع سيدى الغريق. «شهيد يا شبعانين. مات وهو بينقذ أصحابه».

يشتد الغضب تصرخ: «تاخدوا منا كل حاجة. احنا ناس عايشين على باب الله، وباب البحر مفتوح، والرجال تسعى على رزقها. بالقوة والغصب! عايزين تضيعونا؟». شهقت النساء بالدموع. والعيال أحست بالخطر وتشبثت بالجلابيب السود.

لم يستطع سائق البلدوزر أن يتقدم. خاف العمال من عاقبة فعلتهم، ودعاء الناس الغلابة..

ممكن يحدث لهم مكروه.. شلل أو صمم.. تقطع أيديهم.. ده ظلم. ناس عايشة فى حالها نذلهم ليه؟ نكسرهم ونشتتهم؟

عاد موكب الهدد خائباً. كانوا فى خشية من غضب الكبار، من الإهانة والتحقيق والخصم والرفد..

العجيب أن أحداً لم يلتفت إليهم عند العودة.. لم يسألهم المدير عن المهمة. الكل مشغول.. والمكان مختلف عما تركوه. بعد قليل جاء من يهمس لهم بالأمر. تلقى المحافظ أمراً من مصر. من فوق. ولا أحد يعرف إن كان ينتقل إلى محافظة أخرى أم يقعد فى داره.

زاد الهمس وارتفع الضجيج: كراماتك يا سيدى الغريق. فى بضع ساعات تلقى وعده.. وجاءه الأمر من فوق. لو حد مد

إيده. كان راح فيها. دلوقت لا يقدر يهد ولا يشيل..

قالت أم الرجال: يمكن أخيراً حسوا بينا وعرفوا إننا بندافع عن بيوتنا وكرامتنا و«نحمي الشهيد».

استقبلت الحكايات المحافظ الجديد. تبدو عليه السماحة والطيبة. حبات المسبحة تتحرك بين أصابعه. زار عزبة الصيادين في أول يوم له في المحافظة. قرأ الفاتحة ودار حول الضريح.

زغردت النساء.. رجل حقيقي، قلب عامر بالإيمان.. ويحترم شعور الناس. أم الرجال تدور بصينية الشربات. تناول الرجل الكوب منها. ظل يتطلع إليها وهو يشرب...

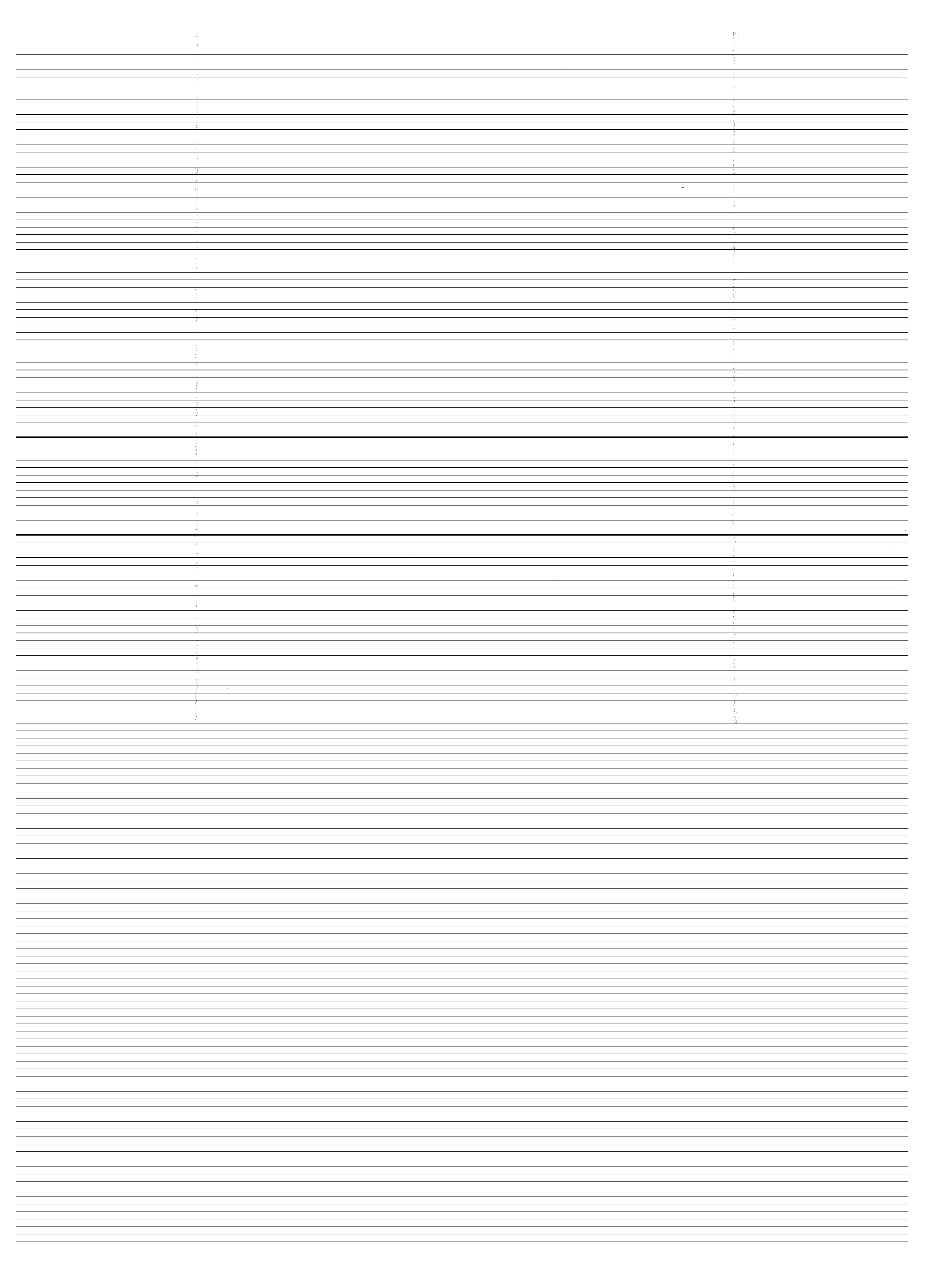
أغضت حياء وخفق قلبها بشدة. هربت من نظراته. صدت مشاعرها. استجمعت قوتها ـ دعت له في تحد:

«ربنا ينور طريقك ويقدرك على فعل الخير»

تحدث عن خطة جديدة للإصلاح.. ضرورة بناء ضريح جديد يليق بالشيخ الغريق، يبعده عن «نحر» البحر. وسيعطى للصيادين خياماً للإيواء لحين بناء مساكن لهم من مبالغ التعويضات.. أصل المنطقة تم تخطيطها وستصبح مدينة سياحية عالمية والخير كثير. والأولاد يلقوا عمل وأجر كبير.

زغردت النساء. نظر الرجال لبعضهم. تلفت العيال على أم الرجال. تنبه الجميع لاختفائها.

يقولون: شوهدت تجرى ناحية البحر، محلولة الشعر حافية القدمين.



فنار الأخوين

بدا البحر مثل حقل المرجان. الشمس ساطعة والمياه تموج بلون العقيق القديم - لزجة.. ثقيلة.. مراوغة.

تقترب السفينة في اتجاه الفنار، تطلبه حثيثاً.

تستلقي الجزيرة الصخرية فوق الماء. تضرب جوانبها الأمواج. ينشق من جوفها جبلان. من جذور الصخر يرتفعان.. هامتان شاخصتان نحو الأفق. يشرفان على البحر من عليائهما.

شاهدان على الثقة والتفاهم والتاريخ المشترك، نظرتهما إلى أمام في انتظار مقدم السفينة والرزق والحكايات.

في برج القيادة يقفان. ربما على نفس الصورة.. الربان والقائد الثاني. الأوامر تترجم بسرعة، والحركة في أدنى معدلاتها. القائد يطلب: حركة بطيئة ميتة.

Dead slow motion.

ثم الاستعداد لإنزال الهلب وزوارق التموين.

أخوان في العمل.. رفيقا سلاح.. من أبناء دفعة واحدة..

تحابا في البحر. مشهود لهما بالكفاءة والثقة.

الأول والثاني.. الطويل والقصير والرحلة تطيب وتحلو بجو

التآلف والمرح. يجدان وقتًا دائمًا للصيد والمبارزة.

كانت مناورة الوقوف أمام الفنار سلسة ويسيرة.. تقدم يحييه:

-الله ينور زياد قبطان.

-نورك جلال قبطان.

والآن استعد لإنزال الزوارق يا بطل.

دخل الربان زياد إلى الكابين ليستريح (راحة البحار مجرد لحظات خاطفة). يطمئن لزميل عمره جلال. يعلو بينهما المزاح والجدل. يحدثه بسمت الجدية. وكأنه يعني ما يقول:

-وهل قُدِّر عليَّ أن أبقى قائداً ثانياً للأبد؟

-أعمل إيه يا صاحبى؟

-انت صاحبى وحبيبى.. بس لازم أتخلص منك. أقود المركب وحدى..

يرد باسمًا متفهمًا: وأنا أروح فين؟ القدر يربط بيننا.. صدقني، وضعنا معًا أفضل.

جلال له سحره الخاص وسرعة البديهة ورغم أنها نوبات ود ومداعبة، إلا أنها تصور حقيقة الموقف والذى يكاد يأخذ شكل الصراع بين قطبى القيادة.

يتفوق جلال فى السخرية والمرح. وبدلاً من تحية الصباح يميل عليه هامسًا:

-أمازلت القائد؟

لم تطلب نقلك بعد؟

وكيف للمركب أن يتحمل قائدين معًا؟

يستسلم الربان زياد للنكت اللاذعة. هذا هو الحال من أيام الدراسة ولا يملكان إلا الضحك معًا.

انتقلت الحالة من محيط الصديقين إلى الإدارة والميناء وشرفات المدينة.

سأله الرئيس يومًا: كيف تحتمله، وهو يشكو للجميع ويضيق بالوضع ويطلب ترقيته؟! ويرد زياد بسرعة:

– صديقي جلال بحار حقيقي.. رجل بحر ممتاز، والقيادة من حقه.

ـ وأنت؟

ـ في موقعي وأمارس عملي.. عليكم أنتم تدبير الأمر.

ـ ولكن كيف يمكن حل مشكلة التناقض في أثناء العمل؟

ـ الثقة هي المعيار.. ولأني أعرفه. أعرف الرجل جيدًا.

في البحر توالت الصور والذكريات. جلال رفيق عمره. يرقد في السرير الذي يعلوه. مسائل الرياضيات الصعبة تثير تحديهما. قد يصلان إلى الحل في لحظة واحدة. يقيمان التصور في الظلام. يطل عليه من فوق: نصل إلى الحل معًا. وتطلع أنت الأول دائمًا!

(علاقة متينة وغريبة تربط بينهما. كل منهما مشدود للآخر بحبل سري.. رغم استقلال كل شخصية).

لا تكتمل الرحلة إلا به. أيام «النوة» يجده صاعدًا إلى غرفة القيادة. يقف كالصخرة في مواجهة العاصفة. علاقة عمل وصداقة. رباط البحر بينهما أقوى من صلة الدم ربما.

أيام الدراسة تضامن معه عندما اختلف مع أحد أبناء أصحاب

النفوذ وضربه. كان التصرف غريبًا على طبيعته.

سأله قائد الكلية عن السبب. التزم الصمت. أنقذ جلال الموقف وتقدم ليشهد بالحق.

-قال له: يا فلاح. فضربه.

ضحك الرجل. وصارت مثلاً.. «قال له يا فلاح فضربه»

-وهل تنكر أنك فلاح؟

-وابن فلاح.. لكنه قالها بطريقة فيها إهانة.

كان القائد يخفي إعجابه بشدة. اكتفى بعقوبة إلغاء إجازة نهاية الأسبوع، وبقي جلال معه. في الداخلية. لم يشأ أن يخرج بمفرده. نفذ معه عقوبة الحبس..

كان وقتا مشحونًا ضاحكًا، لا أثر لعقوبة فيه..

ظل يتقافز كطفل شقي: طيب وأنا ذنبي إيه؟ سيبك من حكاية الوطنية والغيرة القومية ومسألة الكرامة.. ما انت فلاح صحيح.. عمرك شفت قبطان طويل وأسمر وشعره مجعد ومشقوق الجبين؟

الربابنة في العالم شُقر وعيونهم خضر زي نجوم السينما.. عمري ما شفت كابتن فلاح زيك.

وتلك الليلة القمرية نزلا لصيد الإستاكوزا. كانا يحملان المشاعل والحراب، وجلال يقول: «كأننا بنصور فيلم»..

ولعلمك لن أرضى بدور البطل البديل أو «الثاني».

أنا ملك الصيد.. أنا البطل.

كان يبدو في قمة السعادة والتجلي، وفجأة تجمد في مكانه.. عندها شاهد زياد سمكة صاعقة تسعى إليه وتبرز

شوكتها المكهربة. وبسرعة خاطفة دفعه بقوة إلى الشاطئ.

في تلك الليلة قال جلال بيقين وأسى: وجودنا معًا أفضل كما تقول.. أنقذت حياتي.. أنا توقفت وأنت تصرفت، والبحّار لا تأخذه المباغتة.

يعود للمرح: ولكن ذلك لا يعني أن تظل كابسًا على نفسي طول العمر.

ويبتسم زياد للذكرى ويقول لنفسه: عندما عاد إلى طبيعته عرفت أنه بخير.

توقف سيل الذكريات. تنبه القائد لوقع أقدام مرتبكة. ربما الجندي الذي عليه إيقاظ القائد. نظر إلى الساعة.. لم يحن الوقت بعد. ماذا جرى؟! وانطلق خارجًا.

وجد ضابطًا شابًّا في صفره الموت يطلب منه الصعود بسرعة إلى السطح.

اخترق مجموعة من الضباط والجنود. همسات ونظرات قلق. العيون والأيدي تشير إلى صندوق البوصلة. وجد قضيبًا من الحديد ممددًا داخل العلبة. تم رفعه بسرعة.

وقع عليه الأمر كالصاعقة. جريمة بكل المقاييس. الكل يعرف من أكبر ضابط إلى أصغر جندي، أن قضيب الحديد يوقف عمل البوصلة.. يربكها. ومعنى ذلك فقدان الاتجاه وتعريض السفينة للخطر. وهل يقدم بحار على هذه الفعلة؟ هل يوجد خائن على السفينة؟ كان جلال يقف بجانبه في حالة من الوجوم الشديد.. حدق القائد في صفوف البحارة. والصمت كثيف. اهتزت جوانب السفينة فجأة. المياه الزئبقية

تهزها بعنف. كل شيء يهتز ويميل. الفنار في المواجهة.. يقف صلبًا شاهدًا.

ارتجفت بعض همهمات: «نعرف من وضع القضيب..
لم تعد المنافسة خافية على أحد..»

أعلن القائد أوامره.. أن يتولى القائد الثاني جلال مهمة التحقيق، وليبدأ بالمجموعة المتحلقة حول البوصلة ويتعقب مصدر الهمسات..

قال بصوت أراد أن يسمعه الجميع:

-ولا شك أنك يا جلال قبطان.. بحِسّك البحرى والإنسانى ستكشف لنا المذنب.

تبادلا التحية.. والتمعت العيون بالثقة.

استغاثة

ينظر إلى البحر بعين ويصغى إلى نفسه بالعين الأخرى. ها قد تحقق حلمه.. أصبح طبيبًا فى البحرية ـ يرتدى الزى الرسمى ويصعد إلى رحلته الأولى على السفينة.

(مدرس اللغة العربية كان يتأمل موضوعه وجموح خياله، ويقول له:

ـ لك يد جراح.. وروح بحار).

وها قد تحققت نبوءة معلمه.. تفوق فى الجراحة وقبلته البحرية ـ وسد صدره الحلم وانطلق فى أولى مغامراته..

«البحرية تربى الرجال» والسفينة عملها كما دورة الحياة.. تدور بين الفنارات تحمل الماء والغذاء و التعليمات لعمال الفنارات؛ مؤونة تكفيهم شهراً من الزمان لتعود دورتها من جديد.

المياه تغتسل بأشعة الشمس، والسفينة البيضاء تقف أمام فنار الأخوين. الحكايات تقال للغريب تباعًا.. القصص تحلو مع السفر.. وترتفع الأسماء.

الجزيرة الصخرية يرتفع من قلبها جبلان ـ حكاية الأخوين من تراث مصر القديم ـ هنا يرتبطان معًا لحراسة الفنار.

منذ بدء الرحلة من الإسكندرية وهو يشعر بتفاعل غريب يهز روحه وجسده.

الآن تحول إلى عين كاملة. يخب فوق حقول النور. يشهد عمل البحارة يحملون المهمات إلى قاعدة الفنارات. يحرص ألا يفوته مشهد الشروق أو الغروب. يحب لمسة الإشراق.. ويعجب والشمس تغادر تغطس في ماء البحر وتترك اليوم متورداً مسترخياً.

يتذكر الآن موقعه الجميل على شاطئ رأس البر. يجلس على الصخرة العالية في قلب الماء - والنهر يدركه البحر، وصدره يخفق لكل هذا الجمال. العمل يجرى بنظام دقيق. كل يعرف مهمته وموقعه، والكل على استعداد - الزوارق في حركة دائبة بين الفنار والسفينة ومازالت صفحة الماء رائعة وتداعب جوانب المركب. والسماء مزدانة بسحب خفيفة كأنها زهور فضية متناثرة. وفجأة ارتفع صوت يستدعيه إلى غرفة القيادة.

نزل مسرعاً. أخبره القبطان أنهم تلقوا استغاثة من مركب بضائع يونانية وأصيب أحد البحارة لسقوط كتلة خشبية عليه.

كان يخبره بسرعة وعلى طريقة التلغراف - وفي نفس الوقت يتابع تجهيز اللنش والطاقم، ومساعد الطبيب يحمل الحقيبة.

- كل شيء يجرى بدقة في البحر - والكل على استعداد دائماً.

كانت الرافعة تدور لإنزال اللنش.. وصوت الحبال يئز. وسمع الطبيب دقات قلبه تدق بشدة - ويبدو أن وجهه ظهرت عليه آثار الخوف إذ سأله القبطان فجأة عما به.

طرد الخوف بسرعة ـ من تفكيره ـ فهذه أهم لحظة امتحان فى حياته.

حيا قائده: مستعد ياافندم.

أعطى القائد الإشارة. معناها: انزل الآن.

ومعنى هذه الإشارة أنه متأكد من عدم وجود أى من أسماك القرش حول السفينة ـ وهو يثق بقائده. تاريخ من الحكمة والخبرة والتجربة ـ ولكن من أدراه أنه لا يوجد قرش متخف تحت المركب.. وعندما يلامس الزورق سطح الماء لا يلبث أن ينقض عليه.. يُعمل فيه أسنان المنشار.

مرة أخرى يشعر بخوف.. تضطرب خفقات قلبه. تشتد دفقاتها لدرجة خشى أن يسمعها القائد من فوق. شعر أنه قطعة لحم معلقة في الهواء.

أخذ نفسًا عميقًا ليُهدِّئ من نفسه. تذكر أنه كان يحلم بمغامرة.. وتلك فرصته وامتحانه الأول فى الشجاعة والمواجهة.. قدرته على أداء الواجب. نطق قَسَم البحرية والطب؛ أن يعمل بصدق وأمانة وأن يقدم نفسه فداء للوطن والواجب. نفض عنه الخوف.. اهتز كمن ينفض آثار تراب. اعتدل واستقام.. مهمته التى تنتظره أن ينقذ حياة إنسان.. يخفف آلام الجرح. عليه أداء الواجب كاملاً ـ فوق أنه طبيب فهو يخدم فى البحرية. هى مكانة عالية. هو الواجب ـ وليذهب الخوف والقلق..

استعاد ثقته وأخذ يتلو الآيات.. أبياتًا من الشعر تحسن من رؤيته. وانطلق اللنش إلى السفينة الأخرى.

اعتلوا ظهر المركب اليونانى. استقبلوهم بالدهشة لوصولهم بهذه السرعة.. تقدم إلى المصاب، وانهمك فى عمله. الجروح قطعية ولكن لا يحتاج لبتر الساق. أجرى عدة عمليات دقيقة. وكان البحار الجريح ينادى على أمه تحت تأثير المخدر.

تذكر أمه ودعواتها له. من وقت قليل كان ينادى عليها هو الآخر يتنسم دعاءها - سيحكى لها كيف أنقذ البحار المسكين فى أول طلعة له على المركب.. وستكون فخورة به.

في طريق العودة أحس أنه تغير - كبر أكثر.. فى البحر صار كبيراً. انتعش وتنفس بقوة. لم يكن يخشى القرش أو وجود أى وحش..

لو وجده سيواجهه، سيقاومه - ومع أصدقائه البحارة ينتصرون عليه. نظر إليهم بحب.. استقبل بالتصفيق. أمر القائد بعزف الموسيقى.. شعر أنه يحلق فى السماء. تمنى لو تأتى أمه لتراه.. ويرتمى على صدرها.

وكانت الشمس تميل لتلثم البحر.

الصـــدأ

المركب تسـيـر، والرحلة تطول.

الحكايات كثيرة، والأقنعة تركناها على الشاطئ. كلنا يعرف بعضنا بعضاً جيداً. ومن الداخل لا شيء يدهشنا. كل الحقائق معروفة. المركب تسير، والرحلة تطول. ولا أجد سوى نفسى أطل عليها، أغوص إلى أعماقها، وأجد لحظات العمر. لكنى مللت ذاتى، تقلقنى صحبة نفسى. لم أعد أحتمل صحبتها، أدير نظراتى إلى الآخرين.. كلهم أعرفهم. الربان يبدو مختلفاً بعض الشىء، إنه صامت، لم يسمعه أحد يحكى حكايته. إننا نعرف عنه فقط، لكننا لم نعرف منه أبداً. إنه الصمت.

أصبحت صامتاً مثله. الحكايات كلها مللتها. الكلمات فقدت معناها. أتعامل مع الربان بلا كلمات، يعبس ويشرق دون منطق. وعلى وجهى تنعكس نفس الأشياء، كأننى مرآته. يستطيع الجميع أن يعرفوا من ملامحى ما يحدث فى غرفة القيادة.

يقولون عنه إنه البحر. وما الجديد فى الأمر؟ كلنا هذا البحر، نعيش بنفوس عارية بين السماء والماء. نسبح فى

ظروفنا الطبيعية. البحر هو المناخ الذى نعيش فيه. «قالت عنى إننى مثل البحر..» وأنا على الأرض شعرت أنه اتهام، فقدت الأرض التى أعود إليها، لعنة الملاح التائه حلت بى. كان لى شاطئ أحتمى به. كم هى قاسية الحقيقة.. أن تكتشف فجأة أنك غير مفهوم من أقرب الناس إليك. نتلاصق ولكن بحاراً واسعة تفصل بيننا.

هنا فى البحر، نقترب أكثر، كأننا واحد، معروفة كل الخبايا والنواقص والخصال. على الشاطئ تصبح الأمور أكثر صعوبة.

قالت عنى «موحش وقاس». مثل البحر أصفو فجأة وتشرق الدنيا، وأعبس فإذا بريح الشر تفسد كل شىء.

فى البحر يبدو كل ذلك طبيعيًّا. أحتمى بالصمت، بحار من الصمت تلفنى، وأغيب فى خضم من الصخب داخلى. وترتفع الحيرة فوق صارى مركبى ويداعبنى زميل: (كان يجب أن تكون شاعراً). شاعر أنا، لكنى لا أنطق. ماذا يجدى الشعر، هناك وسط الصخور، وبين الشوارع، يموت الشعر والكلمات ويمزقنا الصراع. دائرة مغلقة فيها اثنان والحرب بينهما قائمة، ودائرة أوسع فيها ملايين البشر يتلاطمون. أين يقف الشعر؟

ويعنفنى زميل آخر: «من جعل منك بحاراً؟».

فقط أردت الهروب.. أردت الخروج بنفسى من دائرة الصراع. حملت قوقعتى فوق ظهرى وألقيت بنفسى فى البحر. صغير السن لا يدرى اللعنة داخله.

عليَ أن أواجه نفسي طوال الرحلة . . أتملل بصحبة ذاتي طول الرحيل .

حتى البحر لم أعد أتعامل معه . محاصر داخل الصدفة . شباكي دائرة زجاجية عين مفتوحة عليَ . عيني مفتوحة داخلي ، نفسي أصلبها فوق كياني ، أصبحت صامتًا ساكنًا ميتًا ، وعلا روحي الصدأ .

«الصدأ» ودوت الصيحة الغاضبة فوق زوايا المركب ، هل تتركوننا ليأكلنا الصدأ لمجرد أنكم تهملون أداء واجبكم ؟

اعترتني هزة بالغة ، ودون أن أدري وجدتني أحمل مطرقتي وأذهب إلى السطح . أعرف معنى ما حدث .

ووجدتهم كلهم هناك . . بيد كل منهم قطعة من الحديد يضرب بها الصدأ ، ويتناثر التراكم الخبيث من على السطح ، تتناثر ذراته على الأرض وتبدو المساحة نظيفة لامعة . ترتفع في الجو الدقات المتتالية . . ويشتد إيقاع اللحن ، يزيد الدق عنفًا وخطى الربان تروح وتجيء ، تتابع الصدى المنتظم .

رأسي تدق ، صدري يخفق والسطح يبدو لامعًا .

النشاط يدب في جسدي . شيء مثل الفرح يهبط قلبي . يدي يشتد عنفها .

أحس أني أزيح أطلالاً من الصدأ . الخطر يتهددنا جميعًا ، يهدد الحياة والسفينة .

نحن نركع نشترك في عملية الدق ، نؤدي نوعًا من الصلاة ، بل هي صلاة . كل ما يهم أن يزول الصدأ ، تنمحي تلك النقط الخبيثة المحمرة .

ضرباتنا معًا تزيلها، أيدينا معًا تقوى على صمودها. ألقيت عبء القوقعة عن ظهرى ألقيت بها فى البحر ربما.

يدى تعلو وتدق، روحى تصلى. أستنشق الهواء بحرية أكبر. تعلو هامتى فوق مركبى، وينجلى معدنى من الصدأ.

كتاب البحر

أستقبل البحر بحنين واشتياق..

(وإن هو إلا حلم.. فرصة لالتقاط الأنفاس.. فسحة من الوقت ومعانقة لذة الغياب.. الاسترخاء بين السماء والماء.. الخروج من النفس والتاريخ والأحداث) وليكن البحر لنا مخرجاً.. وساحة تدريب للصبر والاحتمال – ولأكن فيه مجرد إنسانة بسيطة لا تحمل أثقال الناس وهموم المدينة.. عروس تستمتع بشهر عسل بين الموانى والفنارات.. تصحب زوجها في رحلة عمل، وعمله قيادة السفينة..

كان أول قرار للقائد: عدم اصطحاب الكتب!

«مادمت تريدين التغيير – والبحر كتاب مسطور»

فكر: «كتاب البحر» هو رفيقك فى الرحلة.

– وقعت على الكلمة كدفقة مطر ونسمة منعشة.

الكتاب البحر – أم البحر الرجل الذى علىَّ أن أقرأه.. ها قد عدنا إلى مرحلة اليقظة والوعى من جديد.. وضاعت خطة البعاد والنسيان ومحاولة غسيل الروح والاندماج مع الطبيعة..

(وأنا أرتب للرحلة خشيت على نفسى من السعادة.. خفت علىَّ من المسرة. كيف أتبع قلبى.. ولا أتبع خطو المتعبين

وصرخات الأنين في الدور والحقول؟

البحر كتاب عميق.. تأتينا فيه الكلمات شُرَعًا..

(أعرف ذلك النوع من الرجال البحور.. من يعيش كبحر زاخر وهّاب وفيض لا ينفد أبدًا..)

(يريد لأصل إلى قاموس البحر لديه.. وهنا يتحدثون عن حسه الذى يسبق الرادار..)

صدق حدسي.. الرحلة ستكون اكتشافًا وامتحانًا للمواجهة.

قال كمن يتبع تفكيرى : فى البحر يمكن أن يتيح الإنسان نفسه تمامًا بل ويكتشفها أيضًا وهو يحكى عنها.

ابتسمت من خلال شرودى - فى مجموعة الصحاب فى العمل.. أعرف ما يقولون الآن.. وتعليقاتهم المرحة اللاذعة..

المهم أن كلاً منا يعرف كيف يتصرف الآخر، وما يكون موقفه..

قلت : أتعرف.. هناك فى دائرة العمل من يستحق التسمية.. من يمكن أن تدعوه «كتاب البحر»

فى عمل الكتابة.. هناك : «كتاب البحر» يمنحنا من فنه وخبراته.. يمدنا بالحكمة.. نقول عنه : معلمنا.. شيخنا.. سأعود إليهم باسم جديد.

(تذكرت رسالة صديق هربها لنا من وراء الأسوار - يقول إنه النعمة الوحيدة لديهم فى المعتقل.. نتحمل العذاب والإيذاء لأنه معنا - نعمة ونقاوم ونتمسك بالأمل لوجوده بيننا.. وفى الليل يتحول العنبر إلى مسرح ويؤدى كل منا دوره.. وأحيانًا

نعقد محاكمة، ونتعلم كل ليلة شيئًا جديدًا . .)

فوجئت به يتأملنى : لماذا أنت صامتة . . تشردين بعيدًا ؟ ! ثم ضاحكًا : أرى أنك لن تستطيعى معى صبرًا . .

– ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . .

(فى عملنا نعيش حبًّا من نوع خاص – الخاص لدينا هو العام – نسعى لتحقيق أمل أو تقدم بسيط . . نشقى بالجروح القومية والآلام .)

يقول عن مجلتنا : مدرسة وجامعة – نلقى بأنفسنا فى قلب الأحداث ونخضع كل ما تقوم به للجدل والتحليل . .)

– الذكريات تقودك إلى الوعى الحزين . .

لماذا لا تتذكرين فقط دورك الجديد . . وتحاولين الاندماج فيه ؟

عروس البحر . . الفرحة على ظهر السفينة، وهدهدة الأمواج وحفاوة الطاقم – تخلصى من الأخرى المحاربة .

والآن سيدتى حان وقت الغداء – أنت مدعوة على مائدة القائد .

دهشت من الصورة الجديدة التى خلعها علىّ . . فقط لو أندمج فى التمثيل وأكون الشخصية الجديدة . .

قال ونحن على مقربة من باب قاعة الطعام : تذكرى، أنت زوجة القائد . . العيون كلها تتبعك، وتحسب تصرفاتك . قد تلاقين بعض الأصدقاء فلا تأخذك المفاجأة أو الحماس الشديد وتنسى موقعك – موقعنا الذى نحن فيه . .

أحسست أن خيوطًا حريرية تلتف حولى وتقيدنى . . فى اللحظة التى دخلت فيها قاعة الطعام .فوجئت به . . « كتاب البحر » كان حاضرًا – وهو أول من وقع بصرى عليه . . قامة

الكبرياء وحديثه الخفيض ونظارته.. والكل محيط به.. الأصدقاء المنفيون من سنين..

عاد المعلم والصديق وشاهد الكبرياء.. هو من يحيا كبحر.. يعشق الحرية وينظم الكلمات ويعمل للغد الجميل

حتى عندما أخذوه من بيننا - انتزعوه من فوق لوحته

وسعت ابتسامته جزعنا - أوصى زميله أن يخفف من اللون.. والرسام ألا يكتب تعليقًا تحت الصورة ثم مضى..

كان الآخرون يبحثون عن الزعامة والمناصب ومكان الصدارة وهو يحتضن المواهب الجديدة ويخطط الصفحات ويتصاعد بالكلمات.

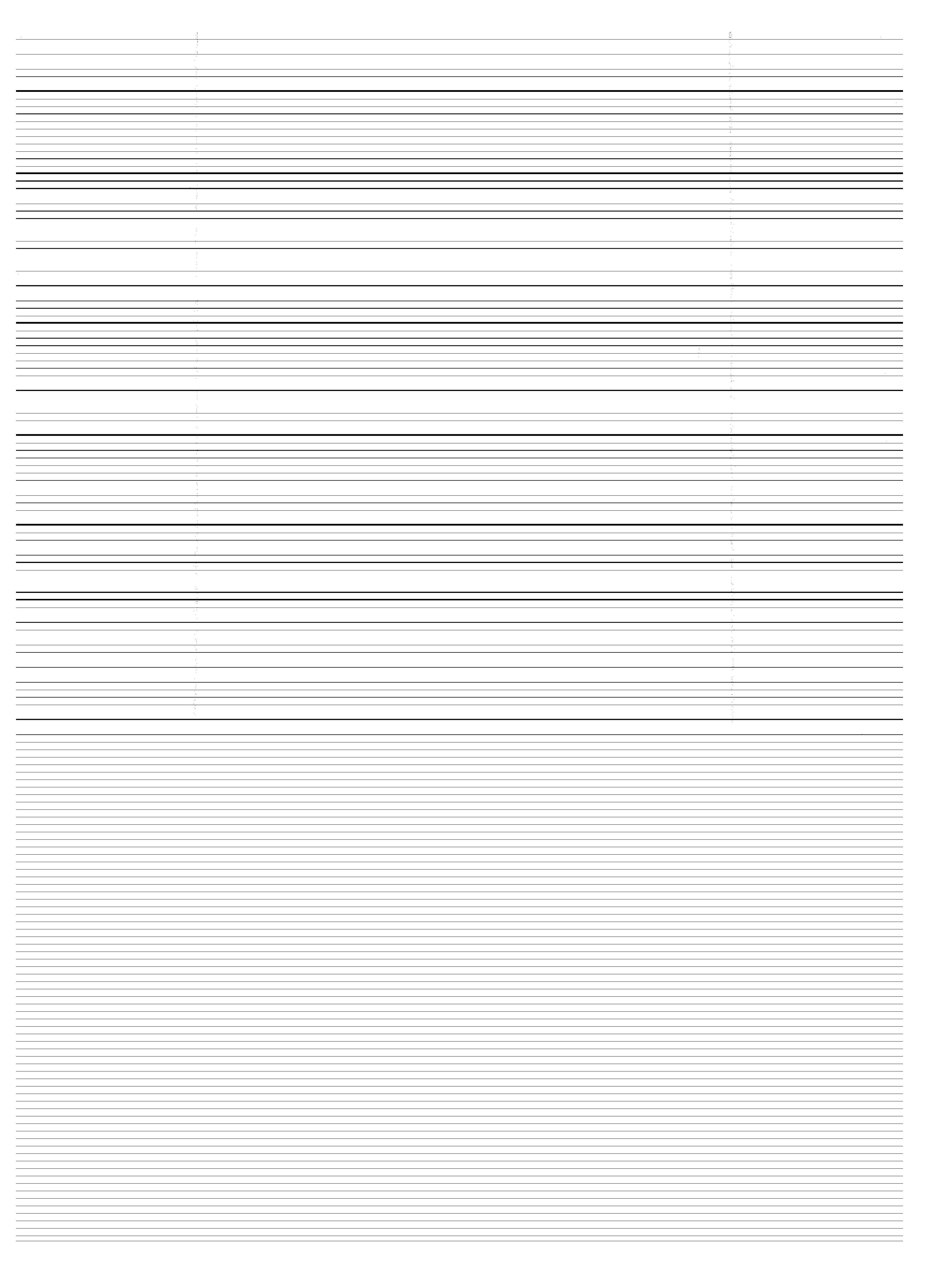
لم أدر تمامًا ما حدث - وكيف تصرفت.. إنما أسمع أصواتًا وكلمات.. وقع كراسي ومناضد.. أكواب وأطباق. رجال البحر المبعدون عادوا وأمسكوا بدفة الأمور من جديد.

واندفق السرور على ووجدت نفسي بينهم. بعد لحظات تذكرت.. ونظرت حيث زوجي.. كدت أضحك عاليًا - فقد فعلت عكس ما أوصاني به..

كان (عليَّ أن أقيس تصرفاتي بميزان الربط والضبط - وألا أبدى انفعالاً أو تهورًا - وتكون حركتي متسقة مع طابور العرض.. وهأنذا أخل بواجباتي وأشعل ثورة على السفينة وأحدث أصدقائي وأفرح لخروجهم.. من المعتقل.. ونحدث ضجة وصخبًا في جبهة الطعام.

وكطفلة مذنبة عدت إليه.. أحاول أن أشرح موقفي. رأيته يقف مشدوهًا..

قلت : انظر من هناك ؟
(مازال مقطب الجبين جهمًا ومنذرًا . .) حاولت الإيضاح أكثر
- كانوا في الأسر . .
(صمته بحر - كان كمن أخذ على غرة)
- أخيراً أفرج عنهم - كانوا في السجن . . أقصد المعتقل . .
(تجمدت الدهشة على وجهه وحمّ الغضب - ويبدو أني جعلت الموقف أكثر خطورة . . .)
وفجأة كأن عاصفة ثلجية تهب بيننا وتوقد نارًا . . اجتاحتني ثورة طوفان يدفعني إلى الجانب الآخر .
- ماذا تظن ؟
أخذوهم ضحية لذنوبنا . . لصمتنا - كانوا يدافعون عنا . . وعن الحياة ذاتها . .
اندفعت كمجنونة أبوح بنشيدى . . بكل ما أكتم في صدري على مدار السنين . .
أحتد أكثر . . أرفع يدى . . أخذت أزيح ما أجد في طريقي من مقاعد ومناضد . .
وما كنت لأستدير وأنا أشعر به خلفي . توقعت شجاراً . . فراقًا أو حتى اعتقالاً . . إلا ما حدث . .
وجدته يسبقني إليهم يرحب بهم ويشد على أيديهم ويدعوهم إلى مائدته .
عندما اقترب مني أشار بانحناءة رشيقة أن أتقدمه . .
وأزاح بابتسامته ما أصابني من غضب . .



التمثــال

أردت رؤية التـمـثـال قـبـل نقله إلى صالة العرض.

أخذتني رجفة .نظرت حولي بقلق. هذا التمثال لي.. هو جسدى بكل تكويناته الخفية.

كأنني أنظر في مرآة !كيف حدث هذا؟

أدور حـول التـمـثـال.. هو ظهـرى. كـأنما غـرس أصـابعـه بفقراتي وعدَّها عداً..

أستمع إلى تـصاعد النبض في عـروقي ـ وتكورت بيده دفقة الظلال والنور. شق بسكينه رغبات دفينة كامنة.

مـاذا علىَ أن أصنع الآن؟ ليس من الممكن الصـــبـــر أو الصمود.. وما يقول الأصدقاء عني: «لابد عرفها عن قرب.. تعرت أمامه.. كانت أكثر من موديل له».

حقًا يخفى ملامح الوجه.. لكنه يبدى مشاعرى، ويطلق صيحات كياني كله ـ بأى نار كانت تتأجج عيناه؟

سـوف يعلقـون الخـبـر فـوق الشـرفـات.. وفي شـوارع المدينة..كنا نمضى أوقاتًا طويلة في الآونة الأخيـرة. يمضى الوقت ونحن نتحدث.. نحكي.. نعيد تلاوة الشعر.. نصغى

للموسيقى. أعبر به البوابات القديمة ودروب التاريخ..
مسالك الكتابة.. مسيرة الذات والطرقات. يبدو متوهجا..
مستغرقًا في كل ما أقول.. (له طريقة رائعة في الإصغاء).

لم أشعر يومًا أنه يتفرس فيّ.. يتلصص فوق ملابسي - بل يحكي لي عن التشكيل وقبس الألوان - يحلق بي فوق قرص الشمس.. يصهر النحاس هناك، ويعود ليعزف عليه نشيده.. وتتوهج الأوتار المشعة.

يقول لي: الموسيقى كالنار.. تتوهج وتشتعل وتنفذ إلى الروح.

سبك الجسد من الحرارة والوهج.. ولكن من يصدق أن التمثال نتاج مخزون روحي وشاعري؟

لم تكن إذن نظرة صديقة تلك التي أطل بها عليَّ. كان في الأمر خيانة.. لم يكن أمينًا معي. يقيس ويتخيل ويجسد وتشحذ مواهبه - وإن ظل بسيطًا وصادقًا!

مارس معي لعبته القديمة.. جذبني إلى عالمه الملون في قريته، وهو طفل يطل من وراء الأشجار على الفلاحات يملئن الجرار.. ويتساقط عليهن الماء. تلتصق الثياب بالأبدان - وكان يجد في ذلك متعة وتسلية. كان ينتظر في البكور.. يمتع البصر ويقف على أسرار الجسد، وهو بعد صغير.

(هطل المطر فجأة ونحن نعبر الحديقة. مرت فوقنا غيمة مثقلة.. وكانت الشمس ساطعة - ابتل شعري وثيابي. أخذنا نضحك.. تأملني فجأة مثل الفلاحة الجميلة في قريتي..).
صعدت إلى بيتي مسرعة.. نظرت إلى المرآة. كان شعري مبتلاً

بشكل يدعو للضحك.. كأني طفلة محلولة الشعر يتناثر منه الماء.. (عندما كنا نسير معًا كان يدعو أن ينزل علينا المطر.. ويقول: كي نضحك من قلبنا..).

ولكن كيف استطاع أن يبرز نعومة النحاس وليونته.. يشعلة بلحظة عابرة - ويسكب فيه رعشة الخلق الأولى؟

أتذكر الآن، كيف كان يقطع حديثه فجأة ويذهب إلى التمثال. يقول: لا أضيع لحظة دفء موحية..

أصر على إخفاء التمثال.. يغطيه طوال الوقت، ويعدني بمفاجأة. هذه هي المفاجأة.. وهي فراق بيننا. من الأفضل أن أذهب الآن.. صوته يقترب.. لا أستطيع النظر إلى عينيه مرة أخرى.

قررت ألا أحضر المعرض.

***

حرصت على مشاهدة التمثال قبل أن ينتقل إلى المعرض.. خبطت على صدرى دون أن أدرى. انطلقت شهقة رغمًا عنى وكدت أترنح لها: كله إلا هذا التمثال.

ليالى طويلة وهو يعمل فيه صامتًا.. لا يحدثنى عنه كعادته - يتكتم الأمر تمامًا - تلبسته «حالة». ينتفض من نومه أو يظل مؤرقًا.. يرتدى ملابسه بسرعة ويذهب إلى مرسمه. أسأله.. إلى أين فى مثل هذه الساعة من الليل - يشير إلى حاجته إلى الهواء النقى (شىء ما يجثم على صدره - يخفيه عنى - أحسست بالتمثال يقف بيننا..)

سور الصين العظيم يرتفع يومًا بعد يوم - (وصلت المهانة أن يفكر بالتمثال وأنا معه - بجانبه !) أعرفه جيدًا - أعرف عندما يصبح عصبيًا ضيق الصدر.. قلقًا صامتًا ! لا يسمعني ولا يرد على سؤالي.. ويعتذر.

أقاوم وأحاول الصبر والصمود. أقسمت بيني وبين نفسي ألا يدخل هذا التمثال بيتي أبدًا..

يعمل ويسهر. يشتد على النحاس. يتحايل عليه ويترقرق له.. وأنا أجلس وحيدة مهجورة..

أحاول استعادة الثقة.. وهل أغار من تمثال ؟

له مئات التماثيل في المتاحف والحدائق وعلى الساحل.. وكنت فخورة بها.. فما سر التمثال وحيرته وصراعه معه.. وهل الأمر نتيجة خيانة؟

عرف امرأة أخرى؟ صورها.. جسدها والتمثال يحمل فعلته؟ يتضح لي الأمر الآن.. هذا يفسر الانقلاب الذى أصابه.

دبت فيه حيوية غريبة - بعد أن حسبته ترهل ودخل في مرحلة زهد. أشعر به مشتعلاً. أتظاهر بالنوم.. ويهب ذاهبًا إلى التمثال.

يجلس بقربي وهو بعيد.. شارد - لا يكاد يحس بوجودى هكذا بعد كل ما فعلته من أجله ؟

يبرع دائمًا في تصوير الجسد والفلاحات المستحمات بالماء يزحمن ورشته ويقفن عند مداخل المدن السياحية.. ويصمم نافورة ترش الماء.. لتبرق زوايا الجسد.. كنت أضحك وأسأله هل عرف تلك النساء واكتشف مستحمات عاريات في ترعة

قريته؟ وأحس به في نشوة من حديث الذكريات وزخات الماء..
يقول: إن المرأة الفلاحة صدرها ناهد ولو أرضعت عشرة أطفال - هل كان يحمل تلك البذرة السوداء داخله - يتلصص بنظرته - يمارس خصلة السوء..

ويتخيل ويلهب مشاعره - وكيف لم أكتشف تلك النقيصة من البداية - أعرف طبعًا أنه يضيف من خياله - ويضفي حيوية ومرونة على النحاس - لكن كله إلا هذا التمثال.

قوام ممشوق - معشوق ربما - متسق.. مشع. شيء آخر غير كل ما نحت. هل عرف المرأة.. هي من خانني معها؟

أبتلع دموعي بكبرياء. أحس بخطواته تقترب. من الأفضل ألا يراني أمام التمثال.. أمام المرآة - قررت ألا أحضر المعرض.



الوجــــوه

(١)

نظرت الطبــيـــبــة إلى الجـــســد

المتهالك.. من يصدق أن صاحبته كانت أشهر الراقصات؟

كانت لدنة.. ناعمة.. تدير حركتها الرءوس وتثير الفتن.

أسرعت المرأة تلملم أنحاءها.. ساعدتها الممرضة. أشعلت سيجارة بيد مرتعشة.. والأخرى المطفأة مطبوع عليها أثر أحمر الشفاه..

حاولت الطبيبة تخفيف قلقها..

- التدخين هو سبب المتاعب كلها:

تحشرج صوتها:

- تسمم جسدى منذ زمن طويل..

المهم هل أتعذب كثيراً فى انتظار النهاية..

- ومن عنده علم النهاية؟

مطلوب الراحة.. وعدم التدخين.

تستمر الطبيبة فى مداعبتها..

- الولاعة الجميلة تساعدك على التدخين.. تحفة فنية.

(غمرت الابتسامة غضون وجهها.. كشفت عن حسن غائر.. تنهدت بعمق).

-من الذهب الخالص.. الشيء الوحيد الذى بقى لى. أهداها إلىّ أحد المعجبين.

سألتها الطبيبة: شاب أم عجوز؟

شردت: ومن ينظر إلى وجوههم؟

(٢)

بعثرت الشرطة أكوام التحف وقطع الأثاث القديمة. تكسرت تماثيل زنجية وتساقطت براويز الصدف.. وأخيراً عثروا على الساعة المطلوبة.

صاحب المحل العجوز كان يقبع فى ركن ويبدو لا مباليًا.. لا يتبع حركة البحث والمداهمة.. تقدم الضابط نحوه ملوحًا بالساعة:

-ما رأيك؟

-خذها إن كانت تعجبك -ساعة أثرية مازالت تعمل.. أخفض لك فى السعر..-اشتريتها طبعًا بثمن بخس.. وأنت تعرف أنها مسروقة.

إشاح بوجهه: موجودة فى المحل منذ عشر سنوات.

-وأنت الصادق منذ عشرة أيام..

اعترف من أتى بها.. رهنها عندك؟

-باعها لى شخص محترم

انفعل الضابط:

ـ من هو ؟ اسمه .. عنوانه .. ما طوله .. لونه .. نعتبرك شريكًا في الجريمة إذا لم تساعدني .. شاب أو رجل كبير ؟

أجاب ببرود : ومن ينظر إلى وجوههم؟

(٣)

عدّل الأستاذ من هيئته. ساوى ياقة قميصه. دخل إلى الفصل متوجسًا.

أخبرته الناظرة أن صحفية تزور المدرسة، ويجب الظهور بالمظهر اللائق.

لمح أصص الزرع مرصوصة .. المكتبة مزدانة .. لوحات معلقة على الجدران. همس لنفسه : لا ينقصنا إلا الصحافة ..

كانت الشقية تكمن بين التلاميذ وتضحك معهم. ماذا قالوا لها ؟ ولم سبقته إلى الفصل. وهل هو كمين؟ تقصده بالذات .. أحد الشياطين الصغار قدم شكوى وجاءت للتحرى .. كل شيء له صبغة بوليسية اليوم.

قام بالطقوس المعتادة : قيام .. تحية للضيوف .. جلوس.

ابتسمت له محيية ـ خرجت من بينهم ؛ ناحلة .. سمراء .. كواحدة منهم.

قالت : أرجو ألا أزعجك واعتبرني غير موجودة .. سأجلس في آخر الفصل أستعيد ذكرياتي عندما كنت بمدرسة القرية.

حاول بالفعل أن ينصرف عن التفكير فيها .. لكنه لا يعرف ماذا يدور في ذهنها، وماذا ستكتب عن مدرسة الأمس واليوم .. عن التعليم ؟ أحس أنه مرتبك رغم أنها في سن ابنته ـ ثم ما نوع

الصحافة التى تنتمى إليها؟ تذكر الحقيقة أم الإثارة كل ما يهمها؟

استغرقت الطقوس المعتادة زمناً طويلاً.. توزيع الكراسات، كتابة التاريخ، فتح الكتب. توقف عند عنوان الدرس... انتهت الحصة أخيراً.

توقفت الشقية قبل أن تغادر.. سألت: أى فكرة يمكن أن يقولها لهم أو يناقشها معهم وقت الحصة المحدود.. ومع هذا العدد الكثيف؟ وهل يمكن أن يتعرف عليهم.. يذكر أسماءهم ووجوههم؟! قال ساهماً: ومن ينظر إلى وجوههم؟

(٤)

القاعة مزدحمة صاخبة. رنين التليفون لا ينقطع. عيون الكاميرا لا تتوقف.. آلات التسجيل تقف بالمرصاد. حشد فى حالة انعدام وزن. يبدو كل شىء مثل كابوس فظيع..

يضطر إلى إلقاء بيان مقتضب.

زادت حدة الأسئلة. حاول التمسك ببرود أعصابه.. القائد الإسرائيلى لا يكترث..

وما فيها! فعلوها آلاف المرات من قبل.. انقضوا كالصاعقة. وقبل أن يفيق الناس من ذهولهم.. ثم تهدأ العاصفة ويستكين كل شىء.. ويستسلم الجميع للأمر الواقع - لم يحدث مثل هذا الهياج من قبل..

احتد قائلاً: قلت لكم إنه مجرد خطأ.. القصف لم يكن متعمداً.

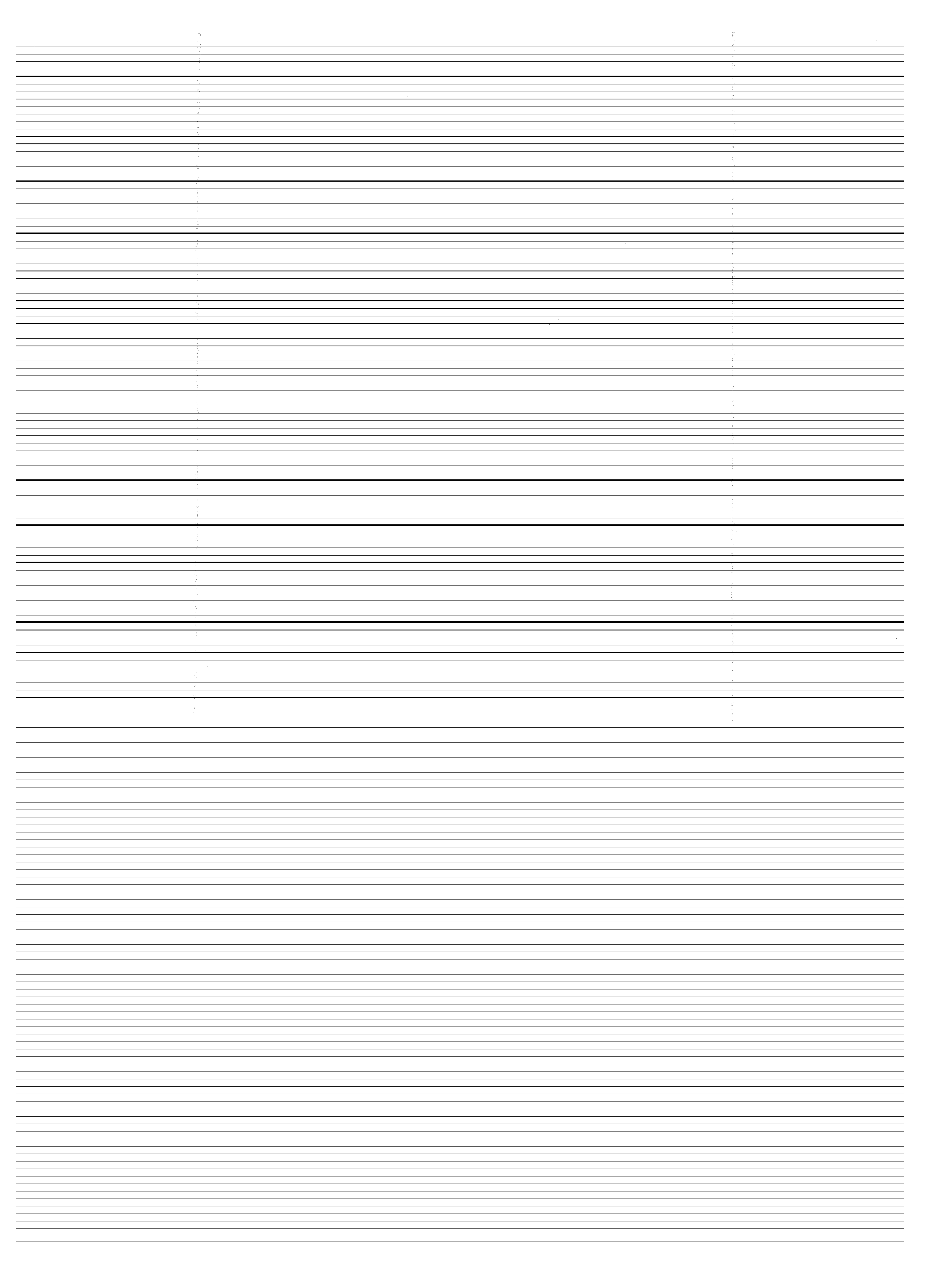
تقدم شخص من عمق الصالة يرفع ساعديه:
ـ وهذه الصورة يا سيدى.. وعربة الإسعاف تفر بالجرحى ـ تحتمى بمبني هيئة الأمم.. هل كانت هدفًا متحركًا، والقصف لم يكن متعمدًا..

انتفض واقفًا ـ تحولت العدسات لالتقاط الصورة. تركته ذاهلاً..

عاجله الرجل: وها هى الصورة التالية والسيارة محطمة ورأس الطفلة محشور بزجاج النافذة..

انظر إلى وجهها..

خبط المنصة بغضب: ومن ينظر إلى وجوههم.؟



باريس

زيــــارة

المرة الأولى التى أزور فيــهـا مـدينة النور. أحـفظها عن ظهـر قلب.. أعـرف ملامحـهـا.. أتنفس عطرها. أحملها فى قلبى وعقلى.

تنبض لغتـهـا فى دمى.. تبعث قـصص الحب من جديد ـ مدام فيفى وبوفارى.. سيمون ودورا و«غنائها الخفيض» ـ باريس حبى.

أعشق مبانيـهـا القـديمة.. أزقتـهـا الشـريدة. ترنو أحلامى إلى نوافذها مسدلة الستائر وشرائط الدانتيلا.. أتصعد إلى حصانها الأبيض على نهـر السين.. ألج كل العـصـور.. أعـيش حيـوات كثيرة. ألتقى بفنانين وصعاليك.. ثائرين ومعارضين.. أتجول بين المقاهى والميادين.. أصغى للشعر والموسيقى.. أبعث على متن اللوحات.. أصرخ لدى المعتقلات. صليت عند كنيسة العذراء.. أتلو نشيدى «أكون حُبًا وسلامًا». أعترف أمام قصر العدالة.. أحمل راية الحرية (يبتسم لى مدرس التاريخ ـ ودائرته الحمراء ـ دائرة القوة ـ أوصانا أن نضعها بين عيوننا ومركز تفكيرنا).

فى المساء يبدو برج إيفل شعلة من نور.. تتناثر فوقه اللآلئ

والأضواء.. يشع على المسلة المصرية.

المؤتمر خلية نحل لا تهدأ.

كلمات وأوراق وجدال.. (طلبت بعض الوقت لأشاهد اللوفر..) لا يمكن الحضور إلى باريس، دون مشاهدة متحف الحضارة وتأمل وجه وطنى فيه.

تابعنا دورة الأبحاث والأحاديث.. يقترب موعد السفر..

«الشمس تشرق من أجلكم» قالها المرافق الشاب..

استمتعت بالعبارة رغم شرودى داخل فكرة مقلقة.. أردت أن أختبرها معه:

- إذا عادت جان دارك.. هل تحرقونها من جديد أم تدعونها تقود خطو المتعبين والمشردين؟

احمر وجهه - كمن أخذ على غرة. أطرق صامتاً..

داخل المطار همس: أشرقت الشمس حين حضوركم. لحق بنا فريق الأصدقاء - معذرة ضاع الوقت.

- بل بقى كل الوقت - ولن ننسى دفء باريس.

قوس الدفاع

كان علينا أن نرتقى سلالم رخامية كى نصل إلى تلك الروضة.

حديقة معلقة.. دائرة مزهرية تحيط بها قمم الأشجار وحبات الندى. تتناثر الأوراق الجافة فوق الأرضية المصقولة مع دفقات النسيم فتصدر وشوشة مرحة وموسيقى حية.

والشمس أجمل ما تكون..

«الشـمس تشـرق من أجلك» قـالهـا كـمن يقـدم لي وردة..

صاحبتني العبارة طوال زيارتي لباريس.

ـ حقًا جلبتم الدفء معكم من مصر.

قالتها المرافقة الشابة. صحبتنا في الصعود إلى الحديقة قبل أن تأتي العربات لتقلنا إلى معسكر النساء.

صوت المذيعة ينساب منذ الصباح (إن العاصمة الفرنسية لم تشهد دفئًا كهذا من قبل، في مثل هذا الوقت من العام).

غمـرني الدفء. فتحت ذراعي أحتضن الهـواء. أدور في رقـصـة غـجـرية وسط أوراق الشـجـر.. أدع النسـائم تتخللني. نظرت إلى الفتاة الناحلة أمامي. فكرت أن أضمها.. بدت لي كمن تنتظر هذه اللحظة منذ زمن.

غادرت موطنها. هجرت حضن أمها. هاجرت إلى عالم جديد. علقت دائرة الحرية فوق صدرها وأسلمت نفسها للمعرفة وللتدريب.

«والصعب في التدريبسهل في المواجهة» هكذا تقول راعيتها.. وتنطق النص بإيمان عميق.

كانت قد تركت لي يدها.. أحسست بها ترتجف كعصفور صغير. أودعت يدي طاقة حناني كلها.. جعلتها طفلتي تقبض على يدي كمن يخشى أن يضيع وسط الزحام. فجأة جذبت يدها.. خافت أن تستلم للدفء والاقتراب الشديد. شدت قامتها.. اعتدلت. استدارت في خطى عسكرية إلى السور.

تنفست بصعوبة وهي تنظر إلى بعيد..

عندما استدارت عاودتها رقتها ورهافتها.. أشارت:

هذا هو قوس الدفاع وفى الجهة المقابلة قوس النصر . . بين الدفاع والنصر نكون . «حال وجدنا أنفسنا فيه» .

قوس النصر

لابد هو – قلت لنفسى – أوسطهم .

عميق النظرة وضاء الجبين .

نعيش أسطورته منذ أيام . . المؤتمر كله يضج بحكايته .

- هل يمكن أن تُحب امرأة إلى هذا الحد ؟

وهل يقدم رجل على مثل هذه التضحية ، ويصل إلى تلك الدرجة من التفانى والمحبة ؟

- نعم . . أنا هو الرجل .

تقولون تضحية ؟ بل تخليت عن الهوى وعشق الذات . انتصرت على النفس ، وكسبت الروح .

كنت من قبل مزهواً بجنسى . . أتِيهُ مرحًا . . أحسبنى فخر الرجال . . من أسطورة التفوق والتميز . كان الطريق خطيراً بقدر ما هو جميل .

فكرت ودبرت كثيراً . . «أنا لم أخلق نفسى على هذه الصورة . . لم أختر أن أكون رجلاً . . فلماذا أحيط نفسى بدائرة السوء وأصر على التفوق . . وبدأت أقتلع من داخلى تلك البذرة السوداء وأتيح نفسى للنور . . أقلع عن خطيئة «أنا خير منه» ومن أى من البشر - خصوصاً خلق الله من النساء . ألتحم بطاقة النور . . أستمتع بسريان الأشعة داخلى . . بالتئام الجروح والندوب - وقوة الحب تشفى الكبر والزهو .

(عندما كان يعجبنى تفكيرها.. كنت أقول «لها عقل رجل») مع أنها تتفوق علىَ وتشد عقلى فى اتجاه النور.

الآن.. مس النور عقلى.. حتى اللغة تألقت. قوة الحب أنقذتنى. كل منا يحمل عناصر الخلق.. معًا نكون قوة.

ـ رجال حمقى يسعون لتدمير العالم ـ قوة الحب تجمعنا.. بالحب نكسب كل معركة ونخلق عالمًا جميلاً.

عبرنا قوس النصر ـ فزنا بمؤتمر النساء ورأينا چان دارك عصرية.. تزدان بالحب.

عاود نشيده.. أدركت أنها خلقت لتحلق.. وجدت من أجل مهمة وليست من أجل حياة ناعمة.

وكان علىّ أن أتنحى وأدعها تنطلق..

والحب يهب نفسه لمن يحب. أحيانًا أفكر.. كيف كنا نمشى فى الظلام ـ وكيف عنَ لنا من دون العالم أن نجرى عملية التحول.

كما كان علينا من دون العالم أن نشهد آثار التحول.

وكأنه ينهى صلاته «إذا لم نكن نحن وتكونوا أنتم ـ فمن غيرنا يكون.»



طبيب القلب

(تندمل الجراح حين البوح بها). أود
أن تتضح صورتي في أشعة عين مبصرة.. في حاجة لأتحدث مع طبيب إنسان

قال صديقي: هو الأفضل.. أستغرب كيف لم أعرفك به من قبل.

(في حاجة إلى طبيب إنسان.. يعرفني جيداً.. أقول له ما بي.. يشير عليّ.. وأستريح).

بنظرة فاحصة، رصد الخريطة كلها.. عرف موقعها ودروبها. يصغي إليّ جيداً. تابع مني الظاهر والباطن.. تفهّم جيداً. أحسسنا بنوبة انتعاش. قال: لابد من الكشف.

- ثق بي.. أنا أدرى بحالي.. أخبرني بما تفكر فيه.. لاتدهش إذا قلت لك: عادت إليَ عافيتي. نهض: لن نستغرق وقتاً طويلاً.

لم يدع لي فرصة للتردد.. سبقني إلى حجرة الكشف. كنت في حالة من المرح.. ولماذا لا أجرب طريقته.. ربما يصل إلى تشخيص يريحني. (تذكرت من قال لي: اضطراب قلبك سببه العصب الحائر..

أنت تتحكمين جيدا بأعصابك أما هذا..

وقلت لنفسي هذا تحليل سياسي لا طبي) .أطل عليَّ . .

وسعتني ابتسامته . . فيض حنان يعتذر بشقاوة : كان لابد من الكشف وإلا سحبوا رخصتي .

وقالوا : لا أتقن عملي .

أحسست به طفلي . . أحببت أداءه وتمثيله . . انتعشت حبات قلبي . أحس بانجذاب شديد . . بحيوية . قال بثقة : لم أجد شيئًا .قلب شابة في العشرين . . لنجرب طريقتك إذن ونتكلم .

***

منذ اللحظة الأولى . . أحسست أني أعرفها . . أمضيت عمري بانتظارها . . بل واخترت مهنتي من أجلها .

يقول صديقي بأسي : كيف لم أعرفك بها ؟

ويظن أنه يعرفها - كنا كأننا نكمل حديثًا بيننا - ومن أول لحظة نقلتني من حال إلى حال . كنت متعبًا فتنبهت . . هامدًا فاستيقظت . . ملولاً فسرت بي همة وحيوية .

أحدثها عن بحث جديد أتابعه بشغف . كنت أفكر بشيء مشابه . . يمكننا اكتشاف تتجدد به خلايا القلب ؛ تساعد القلب البشرى على إنتاج خلايا عضلية جديدة لتعويض التالف منها .

بعض الأسماك يمكنها عمل ذلك .

كأنما نستمع لعزف موسيقي . . تفهمني جيدًا . . تشاركني حلمي .

جاءت تستشيرني وأنا من يطلب العون . .

تنتعش ذاكرتي . . آخذها إلى عالمي . بدأت شاعرًا . . تطلب كراستي وأوراقي القديمة . . تعيدني إلى الجو الذى

أريد . تحررنى . . أعود طفلاً مرحًا أمامها . . أمثل لها خوفى . . وشطب اسمى إن لم أقم بمهمتى . . وهى طفلتى . حلمت مثلها بالكتابة منذ زمن بعيد . أصر الجميع على تفوقى فى الطب . سبقنى صديقى ترك الطب ونبغ فى الكتابة ـ أريد أن أجمع الحبين معًا . أتعلق بأسباب الحكمة . . تتحول اللغة إلى ماء منهمر . . تطلق ما بداخلى . .

وأنا الحكيم أعلن سلامة قلبها .

***

أنا السبب . .

أعترف دفعتهما إلى نفس الاتجاه . .

كنت همزة الوصل بينهما . . أحدثها عنه . . وأتحدث معه عنها .

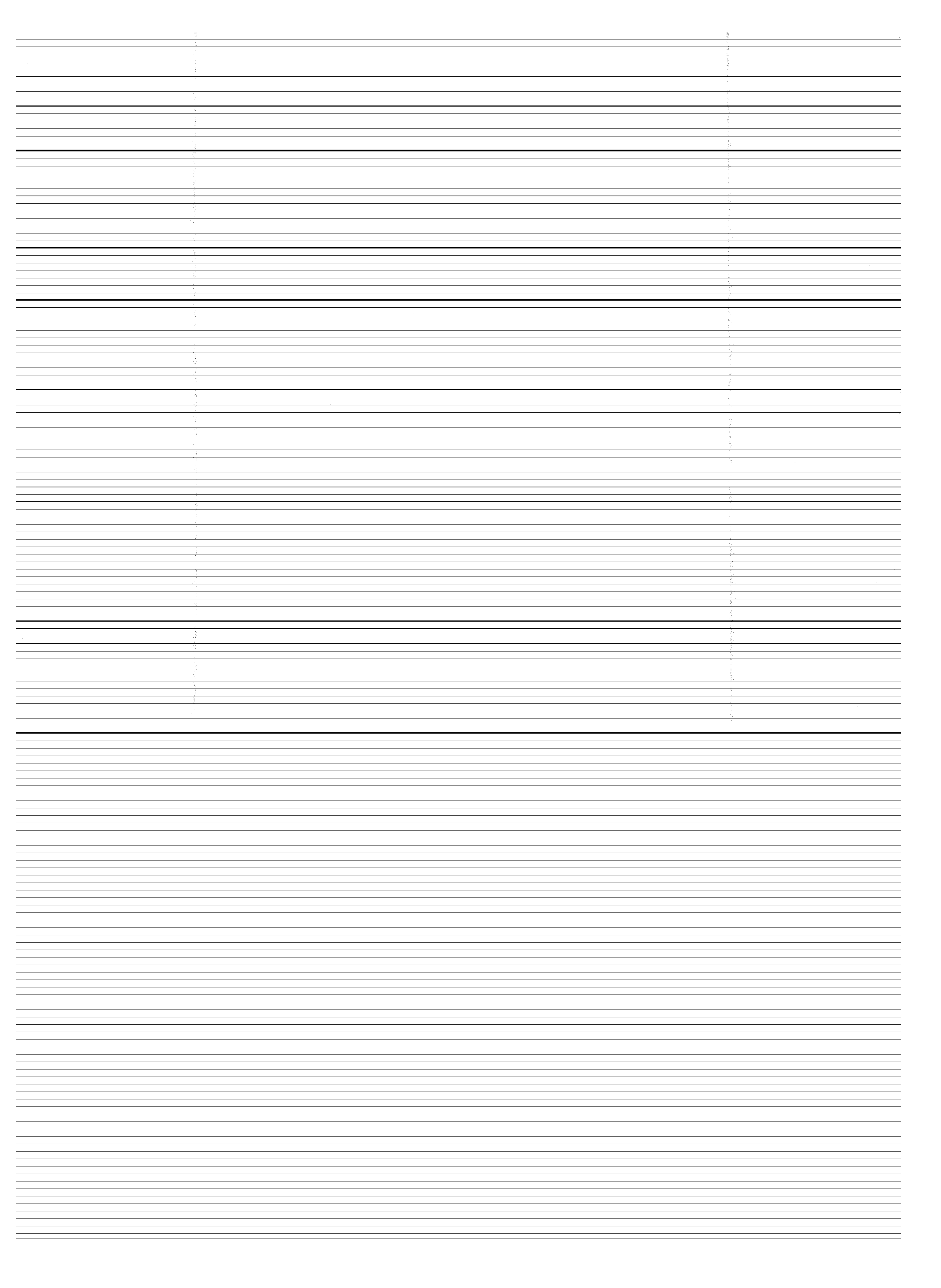
لم أفكر مرة فى الجمع بينهما . كنت أغبط نفسى على صداقتهما ـ كانت شاحبة . . تبدو متعبة . سألتنى عن الطبيب . . حددت لها موعداً . عدت وتذكرت . المسألة مثل لقاء كوكبين ربما تحدث هزة فى الكون . لم أستطع أن أتراجع . . كنت بينهما دائمًا . أجد نفسى معها وأجد فيه كل نفسى .

هو من دون البشر من أحبه وأخشاه .

وهى من دون العالم تقرؤنى جيداً . .

لو ترك الطب والعلاج لأصبح أنا . . نبغ فى الطب ويحلم بالكتابة وأنا هجرت الطب وتفوقت فى الكتابة .

ولا أحد فينا مرتاح ـ وهى فى الوسط ، فى منطقة القلب تمامًا .



المائـــدة

قبلت الدعوة أخيراً

ـ لا أستطيع أن أخذل صديقتى.. قالت:

العشاء فوق مركب على النيل.. وأنت بحاجة إلى التغيير وأما عن أبحاثك ومهماتك فيمكن أن تنتظرك قليلاً لمجرد أخذ النفس.. واستنشاق الهواء النقى.

(تعرفنى صديقتى جيداً.. تغرينى برحلة الماء) كم أتوق للنهر الحبيب.. يطوينى صمته ويغمرنى رشاش منه.. ينثال إلى روحى.. وأبعث للحياة من جديد. كان الحفل بهيجاً ومنعشاً ـ لا يقول لنا صاحبه أبداً ما المناسبة؛ مولده.. موعده.. حصوله على جائزة.. تدليله لنفسه بعد جهد بذله أو عمل يستعد له. المهم أنه يصر على جمعنا ـ أصدقاء الدراسة والسياسة والعمل. ازدانت المائدة.. رصت المأكولات.. تفتحت شهية الطعام والكلام.. ارتفعت أبخرة الشواء وتصاعدت الضحكات والنكات.

توافد الضيوف.. الأغلبية من النساء.. السيدات القادرات نجمات الفن والمجتمع. تقاطعت الكلمات وأصوات الملاعق والشوك.

تنفست بعمق.. كل هذا العدد من الوجوه المصقولة

واللامعة.. من الناس المهمة.. وحتى سكرتيرته وقريبته.

أحب صخب صديقتي.. حيويتها وحماسها.. تعليقاتها الذكية الساخرة.. أستمتع بتصميمها على صحبتي في لحظاتها المدهشة. توفر لها عناء القص والحكي.. تترك لي تقدير الموقف ومشاهدة الحدث من بدايته ومدى تأثيره وتوقعات تطوره.

هتفت لنفسي :هل هذا معقول!

الكل واقع تحت تأثيره.. سواء من تعمل بالعلم أو الفن.. بالبيت والتجارة والإعلام.. يلبين الدعوة.. ويأتين راغبات.

وكم من تنافس وشجار.. تودد وقربى.. زلفى وإغراء..

وهو أبعد ما يكون عن الزواج وأقرب ما يكون في حاجة إليه.

يمني النفس والغير ويراود الآخرين عن الأحلام.عارضة الأزياء صرحت علناً بأنها الجديرة به.. الرجل الناجح في حاجة إلى زوجة أنيقة وجميلة.. زهرة يعلقها على صدره ويمضي.

امتعضت أستاذة الاقتصاد.. رمقتها بنظرة قاتلة.. حولتها إلى صفر مهمل بلا قوة ولا دلالة ولا إمكانية استثمار. قالت بترفع وكبرياء:

العاقل من يحيل الأمر إلى مسألة حسابية.. معادلة رياضية.. يسعى لحل مشكلة التناقض بين الطرفين.

يوجد موازنة بين الدخل والإنفاق.. العالم الحديث يحتاج إلى تكتلات اقتصادية واجتماعية.

نصفه الآخر يجب أن تكون نداً له.. ترفعه إلى مجالات أخرى.. تضاف إلى حسابه ورصيده. ألا ترون زوجة كلينتون.. كانت طريقه للعبور إلى حكم أقوى دولة فى العالم.

تقدمت للمنافسة المذيعة الشقراء.. جاهرت بما أسمته فضيلة البوح والاعتراف.. وسطت صديقتى أن تخطبه لها «أرادت أن تصيد عصفورين بسهم واحد» قالت إنها عصرية.. لا تجد حرجاً أن تتقدم إليه بعرض الزواج..

هى تكمل صورته الاجتماعية، ولكى لا يكون عليه من حرج فى الحفلات الرسمية والأوساط العليا - وهى خبيرة بفن الحركة والصوت والصورة.. تستطيع أن «تبروزه» حقاً.. تضعه فى مركز الضوء، وبؤرة الأحداث والأقوال - بها يزداد تقدماً وتألقاً.

ضحك عندما أوصلت إليه رسالة صديقتى - فهم المغزى من اختيارها للمهمة - عرف أنها تثق بقدرتها ومكانتها - وأنها تؤكد له أنها فوق المنافسة والغيرة والغضب عبر رنة الخبث والسخرية فى صوتها..

انتفض فى تيه وزهو - غلبت عليه روح المداعبة والإثارة.. سألها بماذا يجيب على العرض المغرى؟ أنبها برفق على إحساس الشماتة لديها - ما الذى يدريها أنه لا يفكر جدياً فى الأمر! أخذ يردد ضاحكاً «تخطب ودى ويدى وتعرض علىَّ المزيد من النجومية والأضواء.. يالها من صفقة - وباسم الحرية والتقدم أيضاً». سأل أخرى مباغتاً: وأنت ماذا لديك لتقديمه لى؟

انتفضت وأغضت حياء وكأنها أخذت على غرة ولم تفكر

بالأمر من قبل.

عاد لسمت الجدية ـ ولكن معنى عرض الزواج أنني لست متكاملاً.. تنقصني لتحسين صورتي.. من تظنني؟ لتذهب إلى الجحيم بعيونها وعدساتها ـ أنا أسعى للتفرد جاهداً.

ابتسمت صديقتي بثقة ودلال.. امرأة عاصفة هي.. تغضب فتصير رعداً وبرداً وبرقًا.. ثم ترق وتلين فكأنما تحيل الهموم إلى شموع تتألق وتزول وتتفتح على الدنيا براعم وقطرات ندى.

غيمة مثقلة بحملها ـ صديقتي تطلب المستحيل..

وكأنها أكثر من واحدة.. وخلقت بقلبين.. وهي كتيبة من النساء المتمردة..

هل تحب السهل.. الطيب البسيط أم العنيف العاتي.. تجد نفسها موزعة وعلى شفا متاهة مروعة.

الليلة بدا متألقًا مكتسحًا.. ترى من يكون في قلب صديقتي؟.. جبل الكبرياء أم النهر المنهمر..

يبدو وكأنه سيذيع سراً الليلة.. يعلن عن مشروع.. يعد لمهمة صعبة.. تتطلب متطوعين وضحايا وأولي العزم من شهداء العمل.

عدت أنظر إلى الماء.. أحس بنفسي غريبة على المائدة.. بعيدة عن المأدبة.. أحاول تجاهل هاجس بدأ يتضح ويبين شيئاً فشيئًا.

كلهن لديهن حاجة.. يهمني التواجد والحضور.. كل واحدة تعزف على وتر مختلف.. تبحث عن هدف.. العيون تعبث

وتراوغ.. الطعام يمضغ بتأن وعلى مهل.. بلذة.. بشهية وشهوة عارمة..

الكلمات قذائف موقوتة.. وحمم متوهجة.. بلسان ملتوٍ.. وهمسات لينة مدغدغة.. شفرات وشحنات مؤصدة.

صديقتي ترقب الموقف من جانب المركب.. تطل على الجميع بنظرة مدهوشة ساخرة.. تنظر في فراغ بعيد.. كل الحركة من حولها كأشباح مجازية ساكنة.

تقف كالقائد لرحلة مجنونة صاخبة تندفع في قلب الماء والليل ولا أحد يدرى إلى أى وجهة تسير ومن أجل أى هدف.لى قلب بحار لا أتسطيع الآن التخلى.. علىّ ألا أغادر أو أركن إلى الفرار وعلىَّ الأخذ بزمام المبادرة لدى أى خطر..

قالت صديقتى إن لديها خريطة لشبكة علاقاته وهى تضع رأس دبوس صغير فوق مواقع غزوه.. وملتقى خطوط الوصل إليه والامتداد على ساحته.

أطل داخل خريطة صاحبتى الوهمية ـ تعذب نفسها بدراسة مواقعها ودروبها.. تحمى حصونها والقلاع حولها.

ولكن هل تتسع الخارطة لكل هذه الرءوس الحادة والمثبتة!..

تتبادل المواقع والمواقف وأشهد صراعًا ونزالاً ـ على الطريقة العصرية ـ وعلى وقع نغمات هادئة وفى حضن نسائم معطرة.

لابد يؤمن بتعاليم قائد جند قديم يقول: «لا صداقة بين الدول إنما مصالح فقط».

نحلم بعالم جديد يؤمن بالصداقة والحب والنفع المشترك.

كان قد انتقل بمقعده إلى جانبى ـ اختار منطقة حياد ربما ـ

عدت لفرد الخريطة من جديد .. أتتبع رءوس الدبابيس المشرعة .. من الأفضل الليلة أن نشهد الجانب المرح. بدأت أقيس المسافات وأرقب غزو المواقع والدوائر المحكمة.

- كل ذلك على سطح سفينة عائمة .. !

تتم الحركة بطيئة لزجة - أو عنيفة مباشرة .. وكل ذلك من خلف الألوان والابتسامات وبريق الحلى من الزجاج والماس والذهب. ليس الزواج وحده .. أو قصص الحب والمغامرة .. ولكن تحقيق أى شيء يبعد الهوان والقهر والانكسار الداخلى.

أى متعة عابرة أو كسب هين - من أى لون أو صنف فوق المائدة المترعة .. منفعة .. مصلحة .. صفقة .. قربى .. صورة تذكارية .. مجرد التواجد بمقدم الذاكرة .. عدت أنظر إليه .. ما فيه لكل هذا التطلع والاهتمام.

مال ناحيتى وهمس :

- ما رأيك .. كلهن لديهن غرض .. وراء كل واحدة هدف إلا أنت .. ابتسمت .. هل كان يدرك ما أفكر فيه .. ينصت لحوارى الداخلى. تعجبنى مقدرته على النفاذ .. وتوقيت الهجوم لديه .. قراءة الأفكار وهذا التعبير عن الاستثناء الوحيد.

- تطلعت إليه من جديد .. ولكن لماذا يبدو جذابًا هذه الليلة .. متوهجًا ومؤثرًا؟

العذراء

تجلت أمامي وأبصرت بها

تطلعت إلى وجهها الجميل.. أشرقت وسط الظلام بنورها.. رياحين وورود من حولها.. سلام وهدوء.. تدفقت نسمة منعشة.

«سميرة غبريال» لا أنسى أبداً وجهها ولا اسمها - منذ جمعتنا قاعات الدرس البعيدة فى البلدة الكامنة بحضن النيل وأحلام الصبا. وجه ناطق بالمحبة.. كأنها تؤدى صلاة صامتة وتتداعى به الصور والذكريات دائماً.

لم يحدث ما يذكرنى بها بالأمس أو الأيام السابقة.

أحيا وسط قلق مضن.. دوامة مضنية.. ترقب وجزع - جو مشحون. أغادر بيتى مرغمة. جاء أوان تسليم المسكن القديم ولم أستقر على الجديد بعد.

الأيام تتوالى وتقترب.. يتابع العد التنازلى - لا يمكننى البقاء أو العبور. فى لحظة يرفع عنى الغطاء.. أجد نفسى فى العراء - معلقة بين الأرض والسماء بلا مأوى أو سكن.

هجمت علىّ هموم الدنيا كلها. أحاطت بى شتى المحن. داهمتنى عيون المشردين واللاجئين.. المنفيين داخل أوطانهم..

والذين يزحمون الموتى فى سكنى قبورهم ويحتمون بأكفانهم.

كيف بنا نحتمل.. نروح ونجيء ونأكل الطعام ونجتر أحاديثنا.. نسعى لما يقال له عمل.. نتمطى ونتثاءب ونعانق الملل. ننام داخل حجراتنا.. نلوذ بالغرفات. نغلق النوافذ والأبواب.. نغوص فى الداخل السحيق.

حجرتى هى قلعتى.. عالمى.. جوانيتى.. سفينة كتبى وأوراقى.. حاضرة بحرى ومسرى أحلامى.

تسع قبلة صلاتى وتدفق حوارى.

ما الذى ذكرنى بسميرة غبريال الآن؟ تحركت فى بالى وناظرى..

لم ترد على ذهنى منذ زمن بعيد..

دوامة العيش.. والأحداث محيطة بنا. اشتغلت بالعلم وانشغلت بالفن. نلتقى أحيانًا على الصحفات.. فى الانتخابات ومسرح الأوبرا الجديد. قبل نهاية المسرحية شهقتُ بصوت مرتفع.. نظر نحوى الحاضرون.. عدت أصرخ داخلى: أنا بدون بيت.

جيوش من النمل زحفت على ساقى وجثتى.. تثلجت أطرافى. لن أستطيع الوقوف على قدمى.. كل هؤلاء الناس من حولى.. الكيان البشرى الهائل، يعودون بعد العرض آخر الليل إلى بيوتهم.

بيتى ليس ببيتى ـ وقعت وثيقة التنازل عنه ـ يوم أو بعض يوم يجىء آخرون.

غرباء لكنهم يدخلون.. يقتحمون.. يأتون بغتة.. يحملون

حاجياتهم؛ مقاعدهم وعصيهم سحنهم الغريبة وأحذيتهم.
لابد لي من الانسحاب أمامهم.

أشيائي مبعثرة.. أنحائي متفرقة، وأثاثي يقف مصلوباً مخذولاً. يصعد النشيج ويرتعد. المكتبات فارغة والكتب شاخصة والمأساة جاثمة.

الآخرون قادمون. أخذوا عليّ شرط جزاء.. كل يوم تأخير بألف من الجنيهات.. وينذرون.. يتوعدون. غادرتهم رقة الحديث وبسطة الرجاء عند المساومة. استبقوا مبلغاً من الثمن حتى يتم الجلاء - آمنت بكلمة الشرف. وقعت بين دفتي الرحى.. الآن يقولون ندفع بعد آخر قشة لك ترفع من الدار - والآخر يشترط تسليم المفتاح بعد دفع القسط الأخير. مفارقة مضنية. لم أكن أدرى أن فروق الأسعار متباينة إلى هذا الحد.. والآن يجب أن آخذ لأدفع - أنا بين بين. محتوياتي مكومة مهيضة في ركن البيت المهجور.. والنصف الآخر يقف صفاً صامتاً على مدخل البيت الجديد.

مساكين المشردون والمعذبون واللاجئون؛ من فقدوا الأمن والوطن.. مازالوا يواجهون الحياة قائمين.. يصارعون. هل أفقد حركتي في الموقف الأخير؟ لا يمكنني السعي أو الوصول إلى العمل.. أموت بعجزي هكذا.. محتويات بيتي مبعثرة على الطريق العام، وأوراقي تبكي نزيفها - نهاية لا تليق بي.

نهاية المسرحية تقترب.. يجب أن أستجمع إرادتي وأقوم.. أعود لأرى ما يمكن عمله.

في قريتي كان لنا دوار قديم - يعينني أيام الشدة أن

أتذكره.. مأوى متاح لنا.. أتخيل ترتيب أشيائى فيه.. أثاث عصرى فى دار قديمة.. أنا الآن فى الوسط غير السعيد.. منطقة الرعب بين الخروج والولوج.. فارسى مات ولم يتم التقسيم وتطل علىَ وجوه غريبة فيه تدعى حقها.. لم يعد بيتى هو الآخر. دعوت الله أن أنام فى الليل الأخير.. يغلبنى النعاس فتهدأ أعصابى المؤرقة. أصحو على يوم جميل.. والغد يوم آخر.

رأيتنى فى بيت جميل.. الشرفة تحيط بها الزهور.. رياحين وورود ـ كل الأشياء مرتبة وواعدة. وفى الشرفة المقابلة تبدى وجه سميرة غبريال، صبوحًا مريحًا كعهدى به.. كأنها تؤدى صلاة صامتة. جاءت للعالم من أجل رسالة حب وسلام. يحيط بها وجوه فتيات صغيرات ـ فى عمر الزهور.. باسمات مثلها. قالت: عرفت أن الساكنة الجديدة لابد أنت ـ مادامت الشرفة مليئة بالزروع والورود..

هتفت من أعماقى: سميرة.. لم أعرف أنك تقيمين بنفس البيت أمامى مباشرة.. مطمئنة الآن وأنت قريبة منى.. لا أدرى لماذا كنت قلقة.. الآن هدأت وأنت فى مواجهتى. وجهًا للمحبة ـ ما الذى يمكن أن نخشاه.. دربنا معًا فى مدرسة واحدة ـ تعودنا على المهارة والإتقان.. والطموح.. انشغلت بالعلم.. واشتغلت بالفن..

وجهها مضيء.. طلعة بهية ـ تؤدى صلاة صامتة وترسل عطر محبة.

صحوت مستبشرة.. لم أكن قد تذكرت سميرة منذ زمن.

دوامة الأحداث والهموم.. دائرة النكد..

لقيتها فى افتتاح الأوبرا . . سرى الدفء إلى البناء الجميل . .

أحاطت النغمات بوجهها .

جسدتها الموسيقى لى الليلة الماضية . . انسابت إلى عقلى الباطنى . . تجلت لى الرؤية جاءتنى على صورتها ـ بوجه الحقيقة . . وجه العذراء ـ الاسم والمعنى ـ تحمل المحبة لأرضنا . .

تداعت بها المعاني والذكريات . . وقمت مستبشرة . .

هو اليوم الفاصل حقًا . . اليوم الموعود . . وهو يوم جديد .



الشجـرة

«لندع الشجرة تتحدث الآن .. هى وحدها القادرة على النطق والصمت» ..

تنهدنا جميعًا بارتياح .. مسنا الشوق إلى الاسترخاء ..

ـ «آن لنا أن نستريح» ..

قالها إذ جلس بجانب الشجرة .

نركن إلى الهدوء بعد طول السير والكلم (جماعة المشائين .. فريق نزهات التفكير .. أصدقاء الدروب الصامتة .. نسعى إلى المشاهدة .. نستلهم البصيرة .. نود انعكاس البصر) ..

مرة أخرى نتعدى حدود الضاحية .. نوغل فى المسير .. حتى نصل إلى «بيت الشجرة» .. يتقدمنا .. يسبقنا جميعًا .. نلهث للحاق به ..

ـ ذلك أنه يطير ولا يمشى .

ـ ينطلق بمجرد أن تمس أقدامه الأرض .

ـ أخشى أن يحلق من بيننا يومًا ويختفى .

ـ تخلص من أثقال الجسد .. كائنًا من نور ـ خفيفًا لطيفًا مسبحًا ـ (لا ندرى هل هو فى الثمانين .. فما فوقها .. أم اكتملت لديه «المائة») .

عميق الصمت.. كثير التأمل ـ ساطع الحس..

يخاطب أشجار المدينة.. يرسل إليها حديثًا صامتًا.. يعرفها جيداً.. يعلم تاريخها وسلالتها وكمّ الأحداث التى مرت بها..

يجود علينا بكلمات قليلة تعمل فينا.. تبرق داخلنا.. تتوحد بجوفنا.

يعرف شجر الطريق وحدائق الجيران. يعرف أصلها.. وحقيقة موقفها.. ومسقط جذورها.

(الصفصافة الهرمة.. والزيتونة المعتقة.. أم الشعور المدللة وذقن الباشا المنمقة ـ ومن تدعى زهورها قبعة الشيطان.. أو طربوشه النارى المندلع)..

«يحسبون الشجر زينة وزخرفًا..

الشجر أرواح جميلة مسبحة.. سكان قدماء للتاريخ والمدن.. شهود أحياء على متن الزمن»..

(الأشجار خلقت لتبقى.. مصدراً للجمال.. آية للبذل والسعة.. وتهب حرية للسمع والبصر)..

السير معه.. والاستماع إليه.. ولوج عالمه النقى ـ هو أقصى ما نحقق من متع. نسينا طول الطريق والتعب. حملتنا الكلمات إلى بيت صديقنا القديم وحديقته الموحشة. الشجرة موجودة منذ القدم.. البيت كامن خلفها.. تتصدر واجهته وتحيط بأذرعها جوانبه.. تعلو ظهره وتظلله.. منتشرة بكل الحجرات.. تعكس أشعة الشمس داخله..

هدد الجد حفيده لأنه طلب كسر فرع الشجرة التى تسد عليه المنظر.

ـ الأبناء يروحون ويجيئون لكن الأشجار تبقى دائمًا . .

يسميها أيضًا شجرته ـ تهيئ له متكئًا . . تهبط مكان جلسته . . تسند ظهره وتقيم عالمه . . شجرة مباركة . . مدفون تحتها «المشيمة» لكل المواليد . . «خلاص» الأجيال القادمة تضمه في جوفها . . توطدت بها صلة الرحم . . بنين وحفدة . من حولها .

«الشجرة صديقتي . . جدتي . . تاريخنا الممتد وأحلام جيلنا ـ لعبنا تحتها . . قرأنا حولها . . تناقشنا لديها» . .

(شهدت انكسار الحلم واللحظات المتوهجة) .

تعرفنا الشجرة جيدًا . . تدرى ما بنا . . تعيد ما قلناه لديها . . تذكرنا بما اتخذناه موثقًا . . تصبح ملء السمع والبصر . عنيدة . . جديدة . . لا يبلغ منها الكبر ـ نأخذ ما تؤتينا بقوة . .

غاب في الصمت وارتفع كأنما علت به الشجرة فوقها . . أو سحبته بجوفها . . راح في تسبيحة بعيدة ـ يسبح بلا أدنى اهتزاز أو حركة . .

(طال الصمت يا شيخنا . . لا تبتعد كثيرًا عنا . . .) .

عاد وهو يبتسم ـ كأنما سمعني .

«أعرض نفسي على الشجرة . . وتعرض نفسها عليَّ . .

أجعلني متاحًا لها . . وتصبح متاحة لي . .

ألتصق بها . . تمتص آلامي . . تلفظها بعيدًا . . تسرى عصارتها المشعة داخلي . .

تورق خلاياى . أجد نفسي المتقدة . تذوى كل أوجاع الغرور والكبر» . . فهمت لماذا يقول لنا دائمًا إياكم والكبر . . والإعجاب بالأعمال ، والزهو بها . .

يأخذ من الطبيعة طيبها.. تواضع الشجرة وحنوها..

جاء صديقنا صاخبًا.. أعرف أنكم قادمون ـ اليوم أعددت لكم.. أريد تعويض المرة السابقة.. حين وصلنا لم نجد شيئًا نأكله ـ كسر خبز وبقايا جبن قديم..

ـ لم نأكل بمثل هذه الشهية مطلقًا..

«أعواد الخضر طازجة.. نأكلها بهيئة خلقها الأولى.. لم نفسدها بكثرة الغليان والدسم.

ـ نلتف حول الشجرة.. كأنها وجوه أطفال قادمة..

ـ الطعام ينتظركم بالداخل..

لم يتحرك واحد منا ـ رغم أن الجوع قد بلغ منا.. نظرنا إلى شيخنا..

قال: «ومن يغادر شجرته؟!».

ـ يصعب نقل الأشياء..

«هي وليمة إذن»..

ما هي إلا لحظات وكانت القدور والأواني حاضرة.. وامتدت على العشب المائدة. اختلط صليل الملاعق بقعقعة الضحكات والنهم.

بدا الوجه المضيء ساكنًا.. راح يغسل أعواد الخضر الصغيرة ويمضغها على مهل.. وظل مطرقًا..

قلت هامسة: لماذا لم تبتهج مثل المرة السابقة..

التصق بتجويف الشجرة.. جاء الصوت من جوفها:

«كانت النفس تعطى ولا تتحكم.. رأيتها اليوم..

وارتد صامتًا.

يا مدحرج اللمون

سرنا معًا.. نحلق فوق شرفات عتيقة وسط المدينة (حالة من الذوبان تسرى بى فوق السحاب) يمد بنا الشوق إلى ضفاف النيل.. بين السماء والماء يكون اللقاء وخيوط القمر الفضية تفيض فى القرار.

مشينا معًا.. عند منتصف الليل ـ والمحال أغلقت أبوابها، وضوء أزرق باهت يتمطى فوق الرصيف. كانت تجلس هناك.. عند استدارة الطريق، عارية القدمين تلتف بعباءة سوداء وأمامها حبات ليمون.

مررت بها.. عبرتها فى البداية ـ حاولت ألا أدهس ليمونة شاردة. توقفت فجأة.. سحبت يدى من قبضته أصابع قدميها كأنما تضغط على سلم موسيقى ـ أيقونة من العاج المصفى ـ عارية على الطريق.

أحسست أنى مشدودة إليها ـ حكاية ومشهد وحدث غريب.. بضاعتها ملقاة وقد خلت الطرقات من المارين..

ما تنتظر ببطن الليل.. لا أريد لأى فروض قائمة تفسد جمال الصورة.. وبهاء التكوين.. أستدير وأمعن فى التطلع البرىء.. إحساس غريب بتخلخل الهواء وخيوط أثيرية تدفع بى

وتدحرج الليمون.

أقع فى منطقة جذب شديد ـ من لامرأة وحيدة تبيع بالليل الليمون؟

تناثر من حولى الضباب.. عادت وغمرتنى موجات حنان ـ ربما لا مكان لديها لتعود.. مهجورة.. مطرودة ـ متمردة أم فى انتظار مجهول؟

تزجى بضاعتها وكمدها على الطريق العام ـ ربما لا تقدر أن تعود بدون نقود.. أو تستخفى عن المطالب والعيون.. تنتظر الفرج مع الصبح القريب.

أطبقت يدى على ورقة مالية.. تنهدت براحة. عدت إليها وصدى أغنية مرحة تغنيها الصبايا فى الحقول «يا مدحرج اللمون على صدر حبيبى».

ملت عليها.. تطلعت إلىّ.. عيون تسعها الدهشة. بصعوبة أخرجت يدها من الجيوب السود.. كأنما انشق من السماء نور ـ مالت وتثنت وأطلقت ضحكات مترنحة:

«يا طيبة.. يا حنينة يا حبيبة.. عايزه لمون»؟

خدى لمون..»

تشهق الكلمات برنة سخرية ومرح كأنما تقول: «يا ساذجة يا عبيطة.. خدى لمون..»

ماذا تريد تلك العيون ـ ليلة وحيدة تبتسم لى فيها الدنيا وأحلم بكلمات أمام النيل.. أفيق على ضحكة ماكرة جعلتنى فى غمرة ـ ماذا كانت تريد؟!.. أكانت تفضل أن يعود «هو» إليها.. وألا يعبر دائرة جاذبيتها..

ـ لقد وقف يتأملني ويشهد كيف أتصرف.. وكأنه يعرف حقيقة الموقف.

فضلت أن أنحني وآخذ ليمونًا ـ حتى لا تجرح مشاعرها وتظن أنني أتصدق عليها. اهتزت الخيمة وتوهجت بالنور ـ نظرة مترعة تحرس غابة مزهرة. قمر يسطع داخل غيمة مثقلة. مستني رجفة.. أين هو الطريق الذى كنت أمشى فيه؟ أسعى لرؤية الماء.. وهل اقتربت من أبواب مدينة محرمة.. مغارة مسحورة ـ محارة وهمية تحت البحر ـ أمام فوهة كنز مرصود؟

ـ ربما هى عارية تمامًا تحت خيمة الحرير وتلافيف العباءة السوداء. تتمايل لوقع طبول قادمة لها فى الطريق..

لا تبالى ببيع الليمون.

حيرة تملكتنى.. كأنما تسحبنى الغابة إلى جوفها.. يشدنى الأزرق العميق.. تواصل ليمونه جريانها..

أفعل مثلها. أنسى كل شيء.. وفى عمق الحقول أدحرج اللمون على صدر حبيبى.



لعبة مسرحية

كنا في انتظار رجل المسرح الإنجليزي الشهير وفي شوق لسماع محاضرته.

قال: لن تكون هناك أية محاضرة.. ولا داعي لهذه الجلسة التقليدية.. هيا نجلس معًا علي الأرض.. وعلي هيئة دائرة.. هذا أفضل.. لنشعر بالحميمية والاقتراب من بعض أكثر.

والآن دعونا نقوم بلعبة مسرحية.. الدراما تجري في كل مكان بين أعيننا وبين أيدينا وفي اللحظات التي تمر بنا.. في حدث بسيط يوحي بفكرة.. مجرد مشهد صغير يمكن أن يضيء لنا الحقيقة ويلقي أمامنا بوهج، المهم أن نعرف كيف نقتنص مثل هذه اللحظات ونكشف عن المعني الكامن لها، ليسرد كل منا لحظة.. لقطة.. حادثة.. نادرة.. ولنر كيف نحولها إلي مسرح.

تحمس زميل لنا.. نادرًا ما كان يتحدث ولم يسمعه أحد يحكي من قبل.

لمعت عيناه كأنما ينظر إلي ضوء بعيد ويتابع أحداثًا تجري أمامه.

(أخذ بالخلية الأولي بفكر الفنان ومسرحه ـ الممثل والجمهور

ـرأي أن نمارس دورنا كمتفرجين، وهو الممثل المؤدي).

تطلع ليروي لنا ما يري.. إخوتي الصغار حول «الطبلية» يغالبون النعاس.. تميل رءوسهم إلي الأمام، ويحاولون رفعها والانتظار.. أمي تتشاغل بعمل ما.. وأنا لا أعرف ماذا أصنع بنفسي. فجأة سمعت حركة غريبة بالداخل.. صيحات خافتة متقطعة في البداية.. زادت وارتفع الصوت.. والجوقة المصاحبة له.

قفزت من مكاني. جاءت البشري. أمام الباب الموارب أخذت أروح وأجيء أتلو دعاء الفرج وأبتهل إلي السماء.

صحت عيون الصغار.. ارتفع الرجاء. أسندت أمي ظهرها إلي الجدار، وإن هي إلا صيحة واحدة تقافزت بعدها كل الأصوات.

لم أستطع صبراً.. واندفعت إلي الداخل.

وجدتها.. حملتها بين يدي..هدهدتها. كانت لا تزال غضة ودافئة.

اندفعت خارجًا .كنت أعرف طريقي جيداً ـ حملتها فوق صدري.. في نهاية الدرب يضيء فانوس عم أيوب.. توقف الرجل عن الإغلاق عندما رآني مقبلاً.. ناولته «جوهرتي» وملأ لي الصحن بالعسل الأسود.

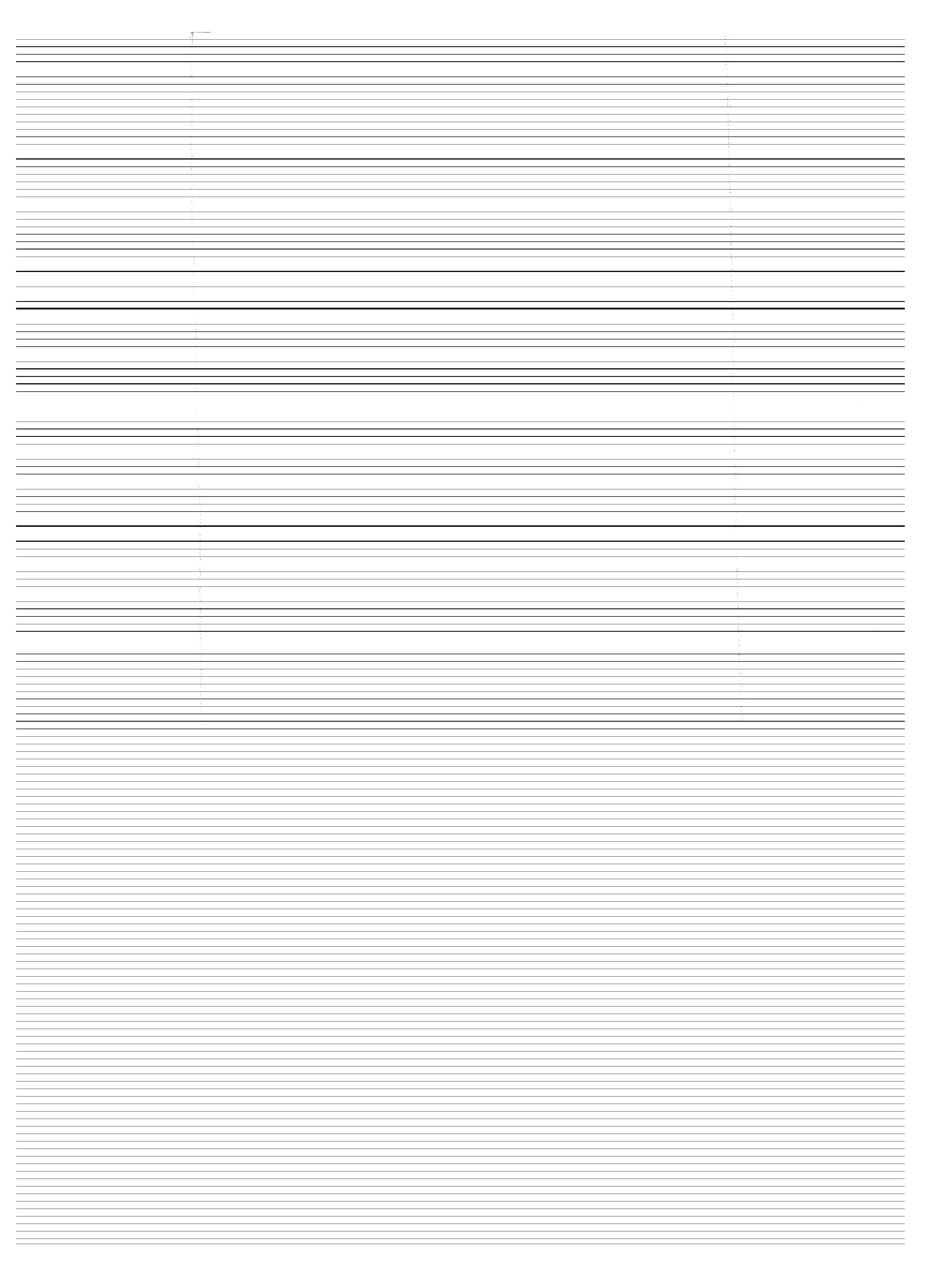
طرت كالطير.. عائداً.. خفيفًا مرحًا.. انفرجت ملامح الوجوه وكانت وليمة عشاء فاخرة.

توقف عن السرد ـ ظل صدره يعلو وينخفض ـ ساد الصمت.. مستنا «حالة» فجأة ارتفعت الضحكات والأكف بالتصفيق.

فوجئنا بالرجل يقف ذاهلاً.. كمن أخذ علي غرة.. واتخذ سمة شخصية الرجل الإنجليزي في المسرحيات القديمة لدي الشعوب الأخري.

قال: من الواضح أننا لم نتابع لعبة.. هذا نص جميل.. مشهد مسرحي. لكني لا أفهم.. هل كان الأمر يتعلق منذ البداية بالبيض؟ صاحبنا كان لا يزال «ممسوساً» لا يريد أن يفرغ نهايته.

أشار إلينا أن نشرح له المسألة.. المسألة كلها يا أستاذ أن بيضة واحدة لا تكفي.



حادث بلا ميعاد

(حاول جاهداً أن يتذكر، أحداث غريبة تمر به، يتأملها وكأنه شخص آخر - تتابع الصور، تداخل الألوان وانفعالاتها، الأحمر الهمجي، والأخضر الوحشي، ولون الشحوب، والنضارة الحزينة، الحزن يختلط بالصخب.

رائحة الألم، رائحة غريبة خانقة - والمهانة تتلوى زاعقة - ياالجيدها ! من العاج المصفى، مثل حمامة..

حمامة بيكاسو الشهيرة - الموسيقى تعوى. شاهدهم يذبحون الحمام فى قريته، كلما جاءت العربة الفارهة تحدث مذبحة فى البرج.

كان يصحو فزعًا من نومه صارخًا، خافت أمه نوبات البكاء، ذهبت به إلى عراف. قال: تعذبه روح شريرة، لطخى جسده بدم حمامة بيضاء. أطلق ساقيه بين الحقول.

ظل حتى الغروب لا يئوب - الرجل طارده بين أذرع النخيل. تذكر الآن فقط أين رأى هذا الوجه.

الشيطان بعينه، دجال القرية، صاحب تعويذة الدم، أو هو صاحب العربة وحقل الذبح العام. أمامه تجلس ذبيحته ، وديعة

مروعة. نوبة البكاء القديم تعاوده.. ترتفع الدموع إلى حلقه، يصرخ أو يحطم المكان - ولتصمت الموسيقى إلى الأبد. تكف أصوات العرس الدامي.

(ها قد بدأ يتذكر)

- والآن حاول تتذكر، قل لنا ما حدث، لا تغفل شيئًا من التفاصيل.

عد بذاكرتك إلى الوراء، لن يفيدك الشرود أو ادعاء الفن والجنون- كن متعاونًا ولا تجبرنا على إرغامك على الاعتراف.

(يحاول جاهداً التذكر.. ضحكات.. رنات كئوس.. أحذية الراقصات في أوجه المتفرجين.. أكف المصفقين.. تداخل الألوان الهستيرى، الأخضر الوحشى، والأحمر المتفجر.

صرخة فزع - تموت بعدها كل الأصوات.. تتكسر الألوان والضياء، هرج، زجاج يتكسر، شهقات، نظرات كوخز الإبر، أصابع تشير إليه - يطل فوق المشهد.

الرأس متدلٍ وتتشابه رغبة في الضحك والصياح.

العيون تحاصره. يتحسس عنقه - لماذا ترتفع يد الإنسان إلى عنقه في لحظة كهذه؟

وجوه الراقصات تلتزق بالأصباغ، يحس باختناق، يبحث عن نافذة، ها هي قادمة - الحمامة الجميلة - لون العاج المصفى - اللون قيمة انفعالية، كان يفكر في اللوحة - البراءة تطل على عالم كئيب.

- من أجلها إذن؟

«البنت البريئة ذات النظرة المشدوهة، من أجلها يمكن أن

يصنع الإنسان أى شيء).

– تحبها ؟ !

(لابد من الحب، معها تعطى الكلمة معنى أرحب وأجمل)

– عظيم.. بدأ حديثًا مفيداً..

هل هى السبب ؟

(هل شاهدت يومًا كيف تسقط حمامة، تقع هكذا من عشها إلى فم ثعبان لئيم – منومة، مسلوبة الإرادة، غائبة عن الوعى ؟ ! رأيت أنا تفاصيل هذا المشهد، جزئياته الصغيرة، عانيت كل ذرة فيه، تجرعته قطرة قطرة.

هل تدرى شيئًا عن تفتيت الذرة ؟ لابد قرأت عما صنعته قنبلة هيروشيما.

قنبلة أخرى تفجرت فوق رأسي، لم أدر ما حدث.)

– أرجوك حاول أن تكون محدداً.

أعيد عليك السؤال : هل هى الدافع على الجريمة ؟

(تريد الحقيقة ؟ هو الدافع الحقيقى.. وجوده نفسه)

– لكن بالطبع لم يقتل نفسه.

(يستحق القتل)

– يعنى أقنعت نفسك بهذه الفكرة، سيطرت عليك ثم اتخذت قرارك.

اذكر لنا ما حدث خطوة خطوة.

(سياسة الخطوة خطوة، الباردة المتأنية – هذه فى المفاوضات والمناورات بين الدول.

حدث الأمر فجأة، دفعة واحدة، وفى لحظة خاطفة).

- قتلته على غرة، فجأة؟

(إذا كان للفكر أن يقتل، إذن فقد صرعته أفكارى - المثير في الأمر أنه في اللحظة التي اكتملت فيها بشاعته أمامي وثقل وجوده، سقط..

تدلى رأسه على صدره وغاب، مات بالفعل).

- أنت معنا إذن أن شيئًا ما، أو شخصًا ما - تسبب في حادثة موته.

ها قد وصلنا إلى بداية الخيط، قل لنا بالضبط لماذا قررت أنه يستحق القتل؟

(كان يفتح فمه بطريقة تثير الغثيان، ويجز على أسنانه وهو يتحدث، كفه غليظة وهو يمسك بالكأس، ويتلمظ.

مشعوذ القرية - كان يجب أن يموت، يختفي من الوجود)

- توليت أنت هذه المهمة

(كنت شاهداً)

- رأيت آخر يقتله؟

(أحد لم يقترب منه، كلنا شهود، الموجودون في الصالة جميعهم شاهدوا ما رأيت، وعرفوا مثلي. الغريب في الأمر أن أحداً لم يغضب، لم يتحرك، أو يفعل شيئًا)

- وهنا كان يجب عليك أن تتحرك.. ماذا صنعت؟

(غضبت، أحسست بدمائي كلها تفور، انتفضت واقفًا، رأيت جسده بغيضًا يزحم المكان، لم أدرك ما حدث. توقف الرقص فجأة.. صرخات، ورأسه تسقط على صدره)

- صبراً، بلا انفعال.

عد إلى البداية من فضلك - ما الذى أثار غضبك إلى هذا الحد؟

(أفسد لوحتى)

- ماذا تعنى؟

(يعبث بالبراءة)

- كف أنت عن هذا العبث لا تحاول إضاعة الوقت - أسلوب المناورة ليس فى صالحك، كل القرائن ضدك، ولتكن إجابتك من الآن لا أو نعم

(الكثير من الأسئلة ليس له إجابة. معلمى قال لنا: أحيانًا تكفى إثارة السؤال، وتركه هكذا محيرًا، مقلقًا، ولكن لماذا غضب المحقق؟

كان يبدو لطيفًا، مستمتعًا بقصتى، وله ذوق فنى - لم تغير فجأة؟)

- هل البنت هى السبب؟

(نعم)

- تعرفها من قبل؟

(المرة الأولى التى أرسمها)

-حذرتك من المناورة نفد صبرى.. الإجابة بنعم أو لا، هل لك علاقة سابقة بها؟

(لا، المرة الأولى التى تقع عليها عينى)

- أحببتها منذ اللحظة الأولى وضقت بالرجل، أو حقدت عليه ربما.. ثم قفزت إلى رأسك فكرة القتل.

(منذ اللحظة الأولى قررت رسمها، لم أحقد عليه، هو مسخ

نبذته فقط، حاولت طرده من الصورة، طمسته في جلسته بالجواش - اللون الأبيض سحب وجوده).

- قتلته في اللوحة، ثم أعجبتك الفكرة، حاولت تنفيذها في الواقع.

(فكرة رائعة، جذابة)

- كيف دبرت للأمر بسرعة؟

(الأمر كله تبدى كمعجزة)

- القتل معجزة؟

(معجزة بلا شك -وإلا فما تسميها؟ لحظة الذروة في الحدث مثل اكتمال فكرة اللوحة.. وكان لابد من حدوث شيء، شخص يضربه على أم رأسه، صاعقة من السماء، شيء يجعل رأسه يسقط هكذا - فجأة على صدره، وتغيب ضحكته المروعة، ألا يبدو الأمر معجزة؟ والتوقيت مثيراً؟)

- تقرير الطبيب يقول إنه مات بهبوط حاد في القلب على إثر صدمة عصبية - خوف شديد ربما - أنت أمامه ترتج من الغضب، عنق الزجاجة في يدك وجرح بها - ما تفسيرك؟

(هكذا وجدوني - قيل لي - ووجدت نفسي بعدها)

- بعد أي شيء؟

ذكرت لحظة قلت عنها قمة الحدث أو الذروة. حدثنا عن هذه اللحظة.

(قمة الاستعراض، والأجساد عارية، والسيقان مرتفعة، أكف المصفقين، تأوهات الغائبين عن الوعي ثم تكسر الزجاج، يتوقف الرقص، تهمد الموسيقى، يسقط الرأس، تعلو

الصرخات، لو حتى لم تكتمل، وتلك هي القمة الوحيدة الناقصة)

- استمع إلى

أنت في مركز حرج، أمامنا جريمة قتل، والتهمة تحيط بك، وحكم الإعدام يحاصرك وأنت بهذه الطريقة لا تساعد نفسك! كف عن العبث، كن عاقلاً ولا تستنفد طاقة صبري.. تستطيع أن تثق بي، أشعر في الحقيقة بميل إليك - ما رأيك، نستريح قليلاً.. أقرأ عليك جانبًا من أقوال الآخرين، حتى تدرك حقيقة موقفك!

- «يقول الجرسون عن القتيل كان إنسانًا طيبًا بالغ الكرم - وكنت تجلس أمامه، وتتطفل على جلسته، ترسم الفتاة التي معه، تحاول لفت نظرها.

يقول: لحظة الرقص كنت مشغولاً مع منضدة أخرى لكن عيني في الحقيقة، كانت على هذه - الرجل الطيب أهم زبون في المحل.

- يقول: إنك طلبت منه علبة كبريت، سارع لإحضارها - رغم عدم ارتياحه لك - وما أن أدار ظهره حتى حدثت ضجة وتناثرت قطع الزجاج، ثم اكتشف موت الوجيه البالغ الثراء والكرم.

يعترف: لم أره و هو يلقى الزجاجة، ولكني أعتقد أنه الفاعل، حاول لفت نظر البنت، واستفزاز الرجل.

يستمر: لا أعرف الدافع للقتل.. وإن كنت أعتقد أنه الحقد. أنا لست واحداً من الأغنياء، ولكني لصيق الصلة بهذه الطبقة

المترفة وأعيش من فيض كرمها.

– طبعًا الماء دائمًا يجرى من العالى – وأنا أقف حيث تتدفق الأموال السائلة.. وأعرف تصرفات هؤلاء الشبان والفنانين، إنهم فئات حاقدة، هم لا يملكون ولا يعرفون كيف يمدون أيديهم بأدب وانحناء.

يقرر: إن أحدًا لم يقترب من المائدة – زملاؤه موزعون على بقية الصالة، وهو المختص بالمكان.

تقديره للموقف أنه في اللحظة التى استدار فيها ليحضر الثقاب – ربما كان تدبيرًا منك لإبعاده –انقضضت أنت على الضحية.

والمرأة الشقراء التى كانت تجلس مع الفتاة والقتيل تقول: إنك ظللت تحملق فيهم بعيون حاقدة.

فزعت من نظرتك، تشاءمت، حاولت أن تدير كرسيها حتى لا تراك. لم تشاهدك بالفعل وأنت تضربه بالزجاجة، لكن أنت الفاعل، مؤكدًا.. إحساسها كان يقول لها إنك تسعى لمعركة.

***

والفتاة الصغيرة قالت: كنت كمن يحدق فى فراغ. أحست بك تنظر إليها.. عيونك تحيطها – أنكرت معرفتها بك. لاحظت أنك ترسمها – عرفت أنك فنان. كانت تحب الرسم، قبل تركها للمدرسة. تقول: هيئتك لا توحى بالقتل.

– لكنها متعاطفة معك، وتود مشاهدة لوحتك – لا قيمة كبيرة لشهادتها. الفتاة قاصر، وهى المرة الأولى التى تأتى فيها

إلى المحل – مع المرأة الشقراء أو مصبوغة الشعر .

– والآن انتهيت من شرب القهوة، والتدخين بشراهة، لعلك استرحت . . أرأيت كيف أن الكل يشهد ضدك؟ لنعد مرة أخرى إلى حديثنا، كن عاقلاً، واذكر كل شيء – أنا أريد مساعدتك . . اعترف بالدافع على القتل حتى أستطيع تبرير التهمة .

(وهل تسمح لي قبل الإجابة بسؤال واحد فقط؟)

– تفضل وأرجو ألا تذهب بنا بعيداً بعد كل هذا المجهود . .

(لا إنه في الصميم

هل إذا جاءك جندي، واعترف لك بأنه قتل عدوه في ميدان القتال تتهمه بالقتل أم تحييه وتقلده وساماً؟)

– عندما يقتل الجندي، فهذه بطولة، لكن الأمر هنا جد مختلف – أنت لست جنديًا، ولم تكن ساحة قتال والرجل ليس عدوًا، فما الذي تريد قوله؟

(هل حدث أن حوكم جندي على أفكاره، وهو يدبر أو يرسم خطة طعن الخصم، المعتدي على أرضه؟)

– هذه أنبل مهمة .

(إذن سجل يا سيدي المحقق أنني كنت في قمة اللحظة التي أؤدي فيها هذه المهمة المقدسة – لولا تدخل القدر)

أنت إذن لم تقتله؟ تعترف فقط، أنك كنت تدبر للأمر . لنأخذ الأمور على مهل، دعنا حتى نناقش الأمر – على طريقتك – الآن فقط اكتشفت مفتاح الحديث معك . . آه منكم جماعة الفنانين، لابد أن يتعامل الإنسان معكم معاملة خاصة . لم يغب

الأمر عن ذكائي، ولكن صدقني أنا لم أحب الرسم، وأنا طالب صغير ولا أؤمن بأهميته حتى هذه اللحظة، لكني أرى مجاراتك في أسلوب تفكيرك وتعبيرك، وقد وصلنا إلى نتائج مدهشة. اعتبرت الرجل عدواً لك، وكما تقول، يغتصب أرضك أو شرفك، وقمت تنتقم لولا تدخل القدر! هذه مسألة ثانوية نؤجلها لما بعد – فقط حدد فيم كان الرجل عدوك؟!

(يحرك شدقيه بطريقة مقززة. يكاد يلتهم الفتاة – والأخرى المحترفة تعد الصيد له.

كان من الواضح أنها المرة الأولى التي تهبط فيها «حمامة» دنيا كهذه. جمرة نار اتقدت داخلي – لم أستطع إكمال الصورة.. توقف القلم، شدتني نظرة عينيها. حمامة بيكاسو، وجهول ينقض عليها لتحطيمها، لم أطق شيئاً يعكر صفو السلام، يعبث بالبراءة. انتفضت واقفاً.. باغتت حركتي الرجل. كانت المرة الأولى التي لاحظني ويدرك نظرة الفتاة ناحيتي. تقدم مني الجرسون طلبت منه إشعال السيجارة. تحرك من أمامي. ألقى الرجل علبة ثقاب إلي – الطريقة التي ألقاها بها، أوقدت جمرة الغضب داخلي، أشعلتني، أحسست بالمهانة واجتاحتني رياح الغضب. لم أدر بعدها ما حدث.. مات، والجرح والزجاجة بيدي)

– ولكن ماذا حدث؟ قتلته؟

(اعتدى علي..)

– ألهذا السبب تقتله؟

(كان لابد من تربيته وتأديبه وإحباط عدوانه..)

- ولماذا تغار على الفتاة لهذا الحد، لك بها علاقة؟

- صاحبتك، حبيبتك، خطيبتك؟

(هى أنا، وكل شيء.. الجذور والحب والمستقبل

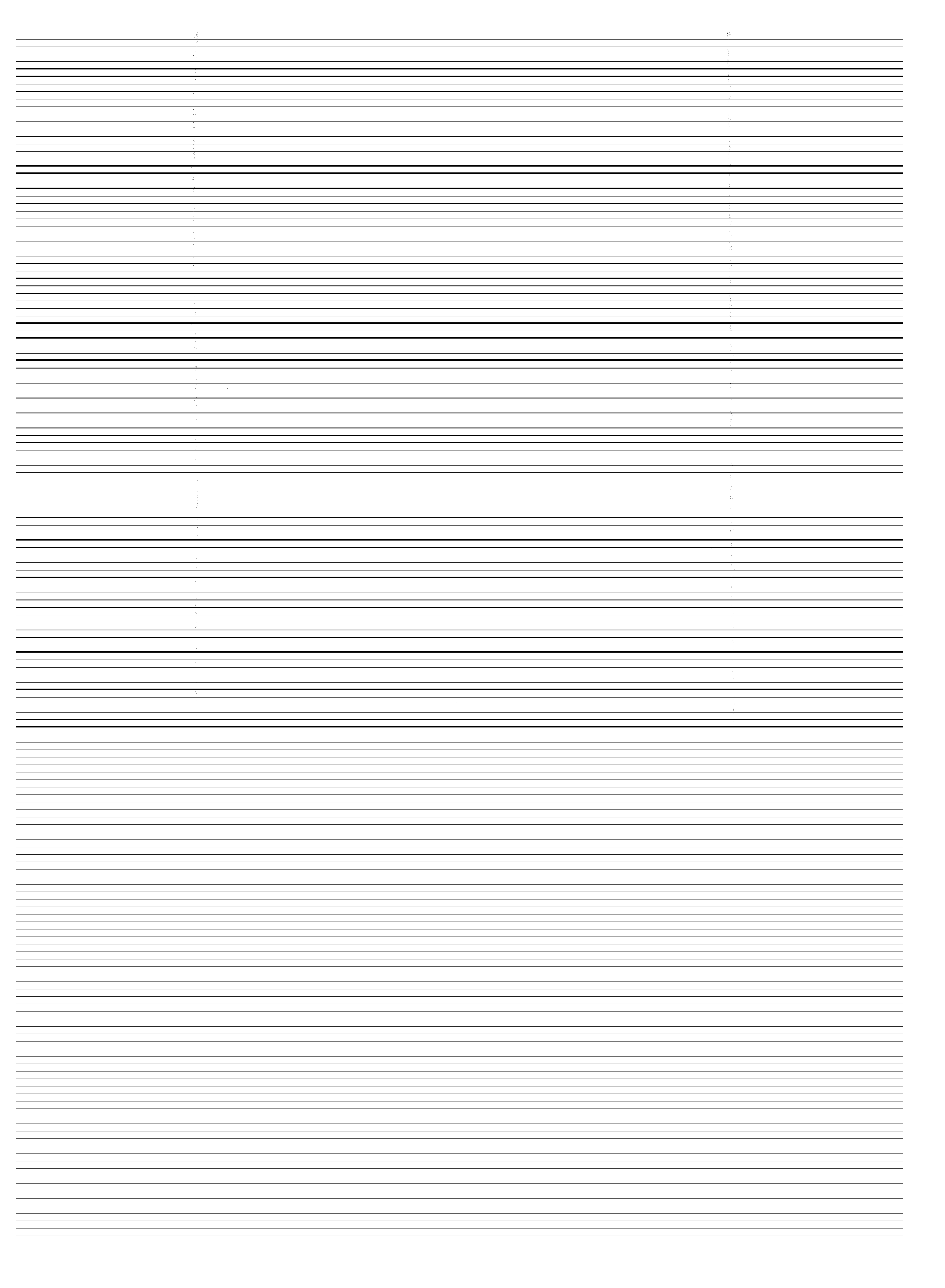
أنسيت ما قلته لك عن الجندى)

- وهل أنت جندى؟

(كلنا، أنا وأنت - والجميع، جنود بهذا المفهوم)

- هل ستعود مرة أخرى للتمويه؟ صبرت عليك أكثر مما يجب، لكنك - دون أن تدرى - اعترفت ضمنيًا، وسنعرف كيف نحصل على اعتراف كامل إذا كانت المعاملة الحسنة لم تفلح معك، فهذه نوبة زميلى، وشهرته رائعة فى الحصول على الاعترف، وسأحذره من طريقة تفكيرك الدائرى، الذى يجعلنا نعود إلى نقطة البدء كلما اقتربنا من الدليل القاطع.

والآن لنبدأ التحقيق من جديد.



أين انتهينا !

تبدأ رقصة الصباح المقدسة.

ننزل إلى الحديقة.. مقعدنا بجانب شجرة المشمش البهيجة.. تنفذ أشعة الشمس على استحياء من خلالها - كأنها شجرة الحياة ذاتها.. نسرى فى مدارها الحنون.. بيننا الكتب والأوراق.. أكواب الشاى وحوارنا الشهي.

- البحار والكاتبة فى ركن قصى من العالم.

نشعر أننا نحتويه - هذا العالم - نضمه داخلنا.. نسع كل الأشياء فيه.

أقول لنفسى كل حين: هذا هو الحب.

كل الأشياء تهون مادمنا معًا.. يمكننا الاستمرار والمقاومة مادمنا متفاهمين إلى هذا الحد.

متعة الدنيا كلها أن يكون الإنسان مكتشفًا.. معوفًا لدى الآخر.

كانت جلسة تدريب وتأمل.. مناجاة وعمل.. سعى وتوحد.. ورغبة فى المعرفة والتعبير عن تلك الأشواق الكامنة.

له أسلوب فى القص والحكي.. يملك قاموس البحر.. كلماته تلقى بوهج الحقيقة أمامي.. تحيل اللحظات والأحداث

إلى معان ورؤى وقوى دافعة للتفكير والعمل.. تبرز إشارات مضيئة ونورا بارقًا.

يصحبني إلى رحلاته البعيدة وقوانين البحر التي تولد من قلب التجربة وأجذبه بدورى إلى داخل العملية الفنية وكيف تصبح عباراته ومواقفه الفكرة الرئيسية أو النغمة الأساسية لبناء قصة أو قصيدة.

(مشاعرنا أقوى من الحب والصداقة.. رباط الفن يوحد بيننا).

الجلسة اليوم غير ما اعتدنا عليه. أرقبه بتوتر وقلق. يبدو صامتًا وشاردًا دروب الصمت تلتف حولنا.

يقول لى دائمًا: فى العمق الأمان.

هذا الدرس تعلمناه من فنون البحر.

(وفى الحياة أيضًا يتم تطبيق هذا القانون البحرى البديع.. الأمان فى الالتحام والقدرة على المواجهة).

أين هربت منا شجاعة المواجهة؟

كيف اختلف إيقاع الوجود حولنا.. والجلسة باتت منذرة ومؤرقة.

أصبحنا فى قمة الانفعال والصخب عندما وقع حادث فى البيت المجاور لنا.

سمعنا بكاء.. نشيجًا مكتومًا ونحيبًا خافتًا.. بعد ذلك قرأنا الحادثة فى الصحف.

جارنا الطيار استشهد فى أثناء تأدية مهمة.. هوى محترقًا والطائرة.

صار قبلة حديثنا وتفكيرنا.

تركنا كل أحاديثنا جانبًا . . يجمعنا الحزن دائمًا في مصرنا .
قلت : مات دفاعًا عنا .
قال : كيف لم نعرفهم من قبل . . واجب العزاء لا يكفي .
لابد أن نبدى اهتمامًا وإجلالاً .
أحسست بغصة . ماذا تفعل الأرملة الشابة وابنها الصغير ؟
ارتعد جسدى بالبكاء . . قام يربت عليّ ويحتضنني . .
قال بطريقته العملية الحاسمة : البكاء لن يفيد .
لابد أن تشعر أن بيوتنا وقلوبنا جميعًا لها .
نقف بجانبها . . واكتبى عن بطولة زوجها .
عن التضحية من أجل الوطن .

صارت شغلنا الشاغل . . مادة حديثنا . . تشاركنا جلسة الحديقة وداخل الحجرات ولحظاتنا الحميمة .

أخذت أتخيل قصتها . . أجسد حياتها مع البطل . . أسكب بين الورق لحظات وحدتها وعذابها .

يداعبني دائمًا : «لك طريقة في التصور والتفكير يمكن أن تؤدى بنا إلى الجنون» .

أحدثه عنها . . عن إحساس الفقد والجرح ، حي أصبح ذاهلاً واجمًا .

أخذنا نرصد حركتها . . نخشى عليها إذا لم تبد في الشرفة . . ننتعش وندعو لها إذا وجدناها تسقى الزرع والزهور .

ظلت بيننا وبأعيننا ووعينا .

صارت هي البحر الذى نحكي عنه ونجدف فيه ويمضنا الشوق إليه .

لاحظنا إغلاق البيت لعدة أيام. كدنا نجن خلالها.. ماذا حدث لها؟! أين ذهبت وما بال الفتي؟.

من نسأل عنها؟

قال: نعيد قراءة النعي في الجريدة.. نعرف من أقاربها وأهلها.. أو ربما نعرف أحداً من أقارب زوجها..

أخذ يمعن في القراءة والتفكير. لاحظ أنها أخت لسيدة مهمة عاملة.

تساءل: هل كانت تعمل قبل الزواج.. هل طلب منها الطيار الشهيد التفرغ له؟..

أشار إلى أن عليّ مهمة - عندما نجدها ونعرف ما بها - لابد أن أنصحها بالعمل.. أو العودة لعملها.

أخذ يختار نوع العمل المناسب لها.. «ربما مهندسة.. فنانة.. مدرسة موسيقى».

يتحدث عن هيئتها وأناقتها..

عدنا من الخارج مرة.. سبقني إلى الحديقة.. عاد باسماً: «جارتنا كانت بالأراضي المقدسة» يا لروعتها.

- وكيف عرفت؟

- من ثيابها.. تتشح باللون الأبيض

بدأت أحس بضيق على نحو غائم.. وبقلق غامض..

قال: ادعيها لتشرب الشاى معنا..

كان يتحدث بحماس واندفاع وصوته تشوبه رنة عتاب..

أقاوم أن أفكر فيه على نحو مختلف.. أو يفتر عني حماسي وحبي لها..

في تلك الليلة لم أنم..

ماذا لو زاد اهتمامه بها؟ إذا حدث أن أحبها..

لن ألوم إلا نفسي.. أنا من عمقت إحساسه بها.. فرضت وجودها بيننا..

أقمت لها هالة من التقدير والإجلال (أخذت أردد: مات زوجها شهيداً.. دفاعاً عنا.. من أجل أن ننعم بطيب الحياة.. بجلستنا الهادئة.. ليوفر لنا فرصة التأمل والتعبير)..

هذا إيماني حقًا.. فهل تحل عليّ لعنة الصدق في التعبير.. أن أعلن عن حبي ومشاعري بكل إخلاص ووضوح..

هل يخذلني حبيبي ويفقد سموه الروحي ويجرفه تيار العاطفة..

يفقد اهتمامه ومقامه.. يجد أمانه في المغامرة؟

متى أتلقى الطعنة الغادرة.. أيخون البحار عهده ومبادئه.. يهرب الربان من سفينته ويدعني للعاصفة؟

ولأول مرة يهجرنا أسلوب المصارحة والمواجهة.

الجلسة باتت ذاهلة شاحبة.. جدار الصمت يرتفع بيننا.

أعطى ظهره للجدار الملاصق لبيتنا.. بدا معاتبًا وغاضبًا.

قال وكأنه يتحدث إلى أخرى بعيدة: ألهذا الحد أنت صامتة؟

اجتاحتني بحار الغيظ والشك.. اشتعال الغابات الذاتي.. أريد أن أصبح نوة ساحقة - عاصفة، أن تصبح مياهي مغرقة.

قلت وكأني أتحدث إلى نفسي: هل تذكر عندما حكيت لي عن طريقتك.. في اصطياد أسماك القرش؟

رفع وجهه دهشًا: وما المناسبة؟

تتابعت ضربات قلبي حتى خفت أن تفصح عني ويسمعها علنًا.. أكملت وكأنني مازلت أحدث نفسي بصوت مرتفع:

تقول إنك تظل تدور من حوله وفي كل مرة تضيق عليه الدائرة حتى تربكه ثم تنقض عليه بحربتك .

تناغمت بصوتي بتدرج متقطع: وهو أسلوبك في السرد والصيد والحياة. جمدت نظرته على وجهي.

كأنما ألقمني حجرًا.. أحسست بخجل وألم.. كدت أعترف.. أبكي بين يديه.. أقول له أرجوك نعود كما كنا.. نكتب ونقرأ ونحكي معًا.. نهتم بالناس والأشياء.. نجد الأمان في العمق.. والفهم والتوحد بالمعرفة.

قال فجأة: لا أحب أن تكتمي شيئًا ضدي داخلك..

أجبت بقوة: مهما حدث فلنحفظ علينا طريقتنا وأسلوبنا..

لنقل كل شيء في المواجهة.. بعدها نعود أحرارًا .

تألق وجهه بالاقتناع - يتسم بقدر كبير من الثقة والاعتداد بالنفس. دهشت من قدرته على أن يكون بسيطًا وطبيعيًا إلى هذا الحد.

ترى كيف سينتهي الأمر.. هل يقرر أن يذهب إليها وأظل وحيدة مهجورة ببيتي هنا.. ألوذ بمكمني بجذع الشجرة؟

أيكون مثل ذلك الطائر القرصان الذي ينقض على عش الطيور الأخرى ويستولي على الدفء؟

وبعد مجده بين الموانئ والخلجان العاتية والأغوار السحيقة يعود قرصانًا يقتحم قلعة شهيد ويحطم أسوارها؟

تنبهت عند ذكر «القلعة» فى تصورى.. ما بال الأخرى..
وهل هى قلعة منيعة محصنة.. لم أشهد الموقف من جانبها ولم أدخلها فى حسبانى..

هو فقط من ألومه.. من أقسو عليه وتضنينى حركة تفكيره ووجهته.

كيف هان عليّ لأفكر فيه بهذا الشكل؟!

كله يهون ولا أظل فريسة للصراع والحيرة.

أغمضت عينى.. أى شيء يحدث ولا أظل فى مرحلة الشك هذه.

أكاد لا أصدق.. هل يتنكر لمبادئه؟ لذة الفهم واكتشاف الآخر والحدس الجميل.. يصبر عليّ.. يتركنى نهباً للصراع.. ربما كنت أسامحه لو حكى لى بصدق وصراحة. يبقى لى أنه لم يجد غيرى يشركه فى همه.. قد أعاونه على نفسه ونواجه الأزمة معاً.

خيل إليّ أن شبح ابتسامة يلوح على وجهه..

(يزداد قوة ونضارة)

أضاءت وجهه الابتسامة: لأول مرة تكتمين عنى مشروع قصتك الجديدة. (ومن يفكر بالكتابة الآن.. الجرح ينزف والقلب يدمي.. وينظر إليها على محمل الفن!)

- إلى أين انتهيت..

تعجبت بحدة - أنظر.. إلى أين انتهينا؟

- ولماذا لا نفكر بأمر النهاية معاً؟

لا أظنك تعانين من مشكلة الصدق الفنى والصدق الواقعى.

أخذتني الدهشة - هل حقًا يفكر في المسألة على هذا النحو؟ معاناة فنية (هل يتفوق عليَّ في مجالي وأسلوب عملي).

قال بهدوء وثقة: أرسم لك مشهد النهاية في القصة كما أتصورها..

ستكتبين موقف البطلة هكذا: ستقول.. أنت أو هي - لا فرق.

«مادام قد وقع في الشرك الذي هيأته له.. مجرد أنه فكر بالخيانة فهو لا يستحق الحب.

هو شخص آخر غير الذي عرفت.. وليست الخيانة لي.. لكنه خان نفسه ومبادئه».

وتكون العبارة الأخيرة: ومضت البطلة في طريقها دون أن تلتفت إلى الخلف.

انزاحت عن صدري الغمة..

تهاوت أطنان من الأحمال والأثقال..

«في العمق الأمان» حقًا.. له أسلوب في السرد مميز.. تفوق عليَّ في مجالي وعملي..

يعجبني تصوره.. موقف البطلة.. نهاية القصة..

كانت كلماته فرحًا طاغيًا بالنسبة لي.

سيادة السفير

آن للغائب أن يعود.. وللمسافر أن يستريح.

دار بعينيه في أرجاء البيت.. ينطق بالجمال والهدوء والذوق الجميل.. يحب هذا البيت من دون الأماكن الراقية التى أقام بها - يسميه بيته. دخل محمولاً إليه هذه المرة..

يرجو ألا يستغرق الأمر وقتًا طويلاً.. من الغريب أنه لم يمض زمنًا فيه.. يأتيه زائراً فقط - فى بضعة أيام.. استراحة بين سفرتين.. إجازة قصيرة حتى يتسلم مهام منصبه فى بلد جديد.

عاد يحتضن بنظراته التحف واللوحات.. يعانق حناياه الدافئة. حولت «سميحة» زواياه إلى حديقة معلقة.. وافرة الخضرة والبهجة..

أهداه والده الفيلا فى بداية زواجه.. كانت سميحة عروساً رائعة.. أحبت المكان والحديقة وجعلته يضج بها.. لها ذوق نادر.. وحرص مثير على امتلاك التحف..

تخصص معظم وقتها إذا جاءت إليه فى البلد الغريب فى ارتياد المعارض والأسواق..

قال له أبوه ليلة الزفاف: «الديبلوماسى فى حاجة لزوجة

جميلة دائماً.. مثل الزهرة المتفتحة يعلقها على صدره أو في يده وينطلق»..

يستغرب الآن لماذا لم يصر على بقائها بجانبه.. أسرته الصغيرة لماذا تقيم بعيداً عنه في القاهرة..

أحبها من كل قلبه.. رغم أن الزيجة كانت تقليدية تماماً – مجرد مصاهرة بين الأسر الراقية – وفرح بها. يخجل أن يقول لم يعرف غيرها. وقته مشغول دائماً والمهام تحاصره.. يأخذ عمله مأخذ الجد..

رضي أن يأتيها مشتاقاً دائماً.. الديبلوماسي مثل البحار.. يخب فوق الماء.. يمتطي صهوة الموج.. يجوب مدناً بعيدة وموانئ نائية.. يعود دائماً إلى حبيبة تنتظر..

حتى هذه الصورة لم تكن من طابعه.. هي التي أوحت بها.. وضحك من عاطفيتها وخيالها.

يستدعيها في المناسبات والأعياد القومية لتظهر بجانبه في حفلات السفارة.. لا تبهرها أوربا أبداً.. ولا سحرتها أمريكا.. تشعره بقلق في الأيام التي تمضيها معه. عندما أنجبت.. ارتبطت أكثر بالقاهرة.

كل هذه الأشياء لم تأخذ وقتاً من تفكيره.. لم يتوقف لديها كثيراً.. أبوه لم يعجبه الحال في البداية.. يطل عليه الآن بوجهه الطيب.. سفير قديم لازمته أمه طوال الرحيل وأماكن العمل..

كيف تصبر وابنتك لا تكبر تحت عينيك؟ البنت تحتاج لوجود الأب.. كذلك الولد.. أفق يا بني نحن أسرة من

الصعيد.. البيت هكذا يتنفس برئة واحدة.

لم ينصت كثيراً لما يقولون.. ها قد عاد بعد أن أقعدته النوبة القلبية.. عاد محمولاً على نقالة.. داخل عربة إسعاف من المستشفى إلى الطائرة.. وإلى البيت بنفس الطريقة..

آن للمسافر أن يستريح..

لحظة اللقاء في المطار.. رأى ابنه وابنته يحيطان بسميحة.. ثالوث جميل.. أحس بخفقة وانقباض.. كأن ليس له مكان بينهم.. بل هو القلب لهذا الثالوث الحبيب- قلبه لم يعد يحتمل.

البيت جميل مريح.. بيت قائم بذاته.. لا يفتقده كثيراً.. يجمعهم حوله.. ويعوضهم ما فات.. يرجو أن تخف عنه نوبة المرض من أجلهم..

هل يعود الأب لاكتشاف أبنائه من جديد.. يتعرف عليهم.. هل يسرون بكل شيء لأمهم؟ جاء ليبقى هذه المرة..

مسألة صعبة.. ولحظات حرجة.. ولابد أن يستقوى على الألم.. والزمن.. مر الزمن ولم ننتبه..

كبرنا في العمر.. سميحة مازالت كالزهرة اليانعة..

- لن يعلقها على صدره ولا في يده.. هو طريح الفراش..

هذا هو الموقف الآن.. رغم قلقها لخبر المرض.. كانت جميلة كعادتها متأنقة..

«لم تعد هزة الشوق القديم.. فتور وبرود بمضى الزمن» تبدو أصغر سنًا من عمرها.

- الرجل تستهلكه مهنته وجديته.

من الأفضل ألا يتهمها بشيء - حتى في أعماقه - بماذا يدينها؟ قامت بمهمة التربية.. وهو طاوعها على ابتعادها.. هما في الجامعة - لا يعرف من تخرج منهما. خجل ووهن.. كل ما يشعر به.. السرير في مواجهة الشرفة.. سميحة دائمة التغيير للأثاث وموضعه.. حتى البيت - بيته - عليه أن يتعرف عليه من جديد. الشجرة أمامه تحتضن الشرفة.. المنظر مريح.. انصرف الجميع من حوله بدعوى الحرص على راحته..

خجل أن يطلب منهم البقاء.. والحديث معه.. في شوق لأصواتهم.. لا يدرى كم من الوقت استغرق في النوم..

الغروب يحتوى الشرفة والحجرة..

سميحة تتحدث في التليفون وتعتذر عن الذهاب إلى النادى - وهل تذهب يوميًا يا ترى؟! تقول إنها تحضر في الغد.. وهل تتركه؟! وهل ينفضون من حوله!! لاحظ أن ابنه كان في عجلة من أمره.. ينظر إلى الساعة دائمًا.. الفتاة رقيقة وعذبة.. الدموع تلمع في عينيها وهي تقبله.. صوتهم يتداخل ويرتفع .. إذا نادى عليهم الآن لن يسمعوه.. ربما لن يتذكروا أنه داخل الحجرة مطلقًا..

كيف يكلم الولد أمه بهذه الطريقة.. تطلب منه سميحة أن يعتذر لأصدقائه فقد يكونوا في حاجة إليه..

هو غاضب.. تحتد: السبب هو ليلى..

من ليلى هذه؟! ارتبط بها.. معروفة لديهم.. لا يعرف شيئًا عنهم.. ويا ترى البنت.. هل لها صاحب هي الأخرى.. هل تقابله في النادى؟! وصوت رجل.. من؟ لا يعرفه.. من يأتى

لمنزله ليلاً هكذا.. ويناقشهم بهدوء.. يبدو وجوده أليفًا أيضًا..

سميحة تتحدث معه.. تخفض صوتها أكثر.. «همسًا» ما يسمع.. يا قوة الله.. من الرجل الغريب؟! تحدثه سميحة بهذه البساطة والألفة.. معتاد على دخول البيت.. يعنف الابن ويطلب منه الاعتذار «لماما»..

لهذه الدرجة إذن!! حتى لو كان زوج أختها - يأتى هكذا بدون زوجته.. رحمك الله يا أبى - سفير ومتحضر لكنا فى الأصل صعايدة على رأيك. فجأة يسأل الرجل: هل هو نائم حتى الآن؟

«هو» هذه تعود إليه.. من الرجل الذى يحتل قلب البيت ويشير إليه بضمير الغائب.

«هو»؟ سيادة السفير «الزوج».. الأب ببساطة يدعوه «هو».

غضب بشدة.. غلى الدم فى عروقه هم بالقيام - طعنة انغرست فى كتفه..

- أوصاه الطبيب ألا ينهض من النوم فجأة هكذا. ألقى برأسه.. ظل صدره يعلو ويهبط.. ماذا لو فاجأته الأزمة؟ هل يشعرون به وقد ارتبكت مواعيدهم ولقاءات النادى؟

كانت الحجرة مظلمة.. أوراق الشجرة تصطفق.. تحيط بغموض على الشرفة.

تتحرك مئات الأيدى تطلب العون والمساعدة.. صوت الرجل اللزج.. كلمات أبيه الحادة.. سخونة تصعد إلى رأسه، ضجة وأصوات.. أحدهم يضحك.. لا يستطيع الضحك.. كان

يريد أن يتعرف على أولاده.. يفتح عينيه فيجد سميحة بجانبه.. لم تبتعد. جميلة ومشرقة دائمًا.. تحافظ على نفسها.

حملها ليلة الزفاف.. صعد بها.. كان قلبه يخفق.. وهى تبتسم بدلال.. قلبه يرفرف بعنف.. يحس بضرباته بوضوح.. موسيقى..

الشجرة تطل برأسها عليه، تلمس أوراقها وجهه.. باردة.. لزجة.. مخيفة.. وأحس السفير أنه مات.

التعويذة

وكأنني ماهرة اكتشفت شيئًا مثيراً،
لعبة مسلية أستعين بها على الحياة حتى لأستغرب الذين لا يعرفونها كيف يعيشون.. أو على الأقل كيف يحتملون؟
التعويذة المنجية من المهالك، الحارقة للقلب لابد أن تصل إليها في النهاية.. وحتى لا تقع بين أيدى الذئاب.. وحتى لا ينهش لحمك الغيلان. أعذب نفسي بها.. وبها أحترق.. أشعر بهوان.. ولكن أن تختار وسيلة عذابك فهذه نعمة - إذا تجاوزنا معنى الكلمات.

«الكلمات».. ذلك الاختراع البشرى الساحر.. تلك الموسيقى العذبة تصدر من أعماق الإنسان.. كالشجرة المحرمة.. من يتذوق حلاوتها تحل عليه اللعنة.. ويوصم بالخطيئة.. وكلنا في الأصل جناة.

من أجلها أصلى فى المحراب.. أحرق البخور.. راهبة أعيش ليلى ونهارى.. دموعى أنهار تسيل.. وللقلب عيون ترى أين تكمن الخطيئة.. عيون مشدودة إلى طريق الخلاص.

في خضم العذاب نتوه.. نسبح في بحار الدم، ولا خلاص.

لكن «تعويذتى» باهرة.. أتشبث بها.. أجوب البحار..

أحلم أن ترفع عنى اللعنة المقدسة.. أجد الحب.. ويكون الخلاص..

تعويذة ترقد داخل حلقى.. تسكن رأسي.. لا يمكن الوصول إليها. ارتد كل شيء فى إلى الداخل.. كل نبض خلاياى.. موسيقى خرساء دوامة المونولوج الداخلى.. والاحتراق الداخلى.

وهو الطريق الوحيد الشجاع.

لا شك أنى ماهرة.. كيف اكتشفت الشيء المثير؟.. تعويذة أستعين بها على الحياة؟.. أحتمى بها، أغلق كل أبوابى ونوافذى.. حتى نزيفى كان من الداخل أيضًا.

ومع ذلك تعاودنى نوبات الإعياء. أكاد أنفجر.. خلق الإنسان ناطقًا. وفى البدء كانت الكلمة.

أحيانًا تراودنى رغبة فى الصراخ.. مجرد الصياح بصوت عال.. أزيح ثقل الجبال.. ركام الجفاف.. أقف فوق سطحى وأزعق من الأعماق.. فوق أعلى قمة فى المدينة «يا قاهرة. يا حبى وعذابى».

لكنها رغبة مجنونة أجيد خنقها مثل بقيت الرغبات. فى المساء أحكم خنق غرفتى. غرفتى يتقاسمها معى الفقر والكتب والعذاب.. ولأنى إنسان أحيانًا يغمض جفناى وأنام. أستسلم لحظة للنوم.. ولا أدرى حتى الآن إذا كان ما أراه حلمًا أم حقيقة؟

دائمًا أقف بين اليقظة والمنام.. بين الحقيقة والحلم.. أرى أنى فى العراء أنام.. لا سقف هناك ولا جدران.

كتبى حولى مبعثرة.. أوراقى متناثرة. يزورنى قوم غرباء ذوو وجوه كريهة.. وسحنات مخيفة. فى حلمى كنت أصرخ مرات.. أسمع صوت نفسى.. الصوت الذى أحبسه فى النهار.. متهورة أنا.. وحمقاء فى السماء.

أردد أبياتًا من الشعر.. أتلو قصة.. العجيب أن ذاكرتى التعسة تتيقظ فى مثل هذه اللحظات.. وتجيئنى الأبيات هكذا فجأة.. وكأنها إلهام.

يصاب لسانى بلوثة.. يفلت زمامه.. يأخذ فى القراءة.. يخوض سطورًا من القصة.. يمسك ببيت القصيد.. تفيض أنهار العسل.

تبًا للإنسان!! رغم أننا فى النصف الأخير من القرن العشرين، لم نستطع التحكم فيما يسمونه: العقل الباطن، رغم كل الآلات والمنجزات.

عقلى الواعى أمسك به.. أعالجه بالتعويذة.. لكن ذلك السائب.. السابح.. ذلك الباطن المدمر.. يفضحنى فى حلمى.. ويذيع اسم شاعري، وكاتب قصتى.

اللعنة أيضًا داخلى.. ومن يدرينى أن ما أراه حلم.. ربما هم يأتون.. ينبشون خزائنى.. عقلى وقلبى.. يسرقون نفائس ما أخفى.. يعبثون حتى النخاع.. كرات دمى يحصونها ويتركون لديها جهاز قياس الأعماق. من أنا؟.. محيط.. حوت.. من فصيلة البحار؟

مجرد ذرة صغيرة من هذا التراب.. قطرة ماء من نهرنا النيل.

عـروس زفت إليـه يومًـا . . حلمت يومًـا بكتـابة الشـعـر . . ومعانقة الإله رع المشرق على الوادى الخصيب . .

عن أى شيء يبحثون ؟ ! رغم التعويذة أشعر بخوف . . أخاف النوم . . وأخاف الصحوة . . ويقف بى قدرى على حافة الجنون . . حتى الجنون لا يأتى كـاملاً . أخـشى مـا أخشـاه أن يصيـبنى فيحسبونها شجاعة . . الشجاعة ليست هى وسط أرسطو السعيد . . إنها رذيلة . . أحد طرفى معادلة الشر . . التعويذة تقف فى الوسط تمامًا . . بين الشجاعة والخوف . أرسطو المعلم عاش فى الزمن الماضى . . عـاصـر الإغـريق القـدمـاء . . لم يـعـمل حـسـابًا للتطور . . مثلى كان يستعين على الحياة بالشعر .

حسبت نفسى ماهرة عندما اكتشفت تعويذتى الشريرة المعذبة . . رغم أنى أحطت نفسى بالسياج الأصم . عـانقت فى وحدتى القهر . . غمست لقمتى فى مرارة الأسى .

رغم كل ذلك لم يكفوا عنى . . كل خطوة أحبس آهة تكاد تنطلق . الشراك ممتدة . . والمصائد فوهات على الطريق . . المكائد ترتفع حتى لتغطى وجه السماء .

اكتشف الجناة سر تعويذتى . . عكفوا على حل رمزها . . عملوا من أجل إفساد مفعولها .

لا أنكر أنى فى أحيـان كـثـيـرة ضـقت بهـا . . وددت أن تفارقنى . . أحسست عن يقين أنها خدعة . . مصيدة انسقت إليها . لكنى ماهرة . . لم أضع وقتى فى تساؤل دائرى . . هل هى من صنعى . . أم فرضت علىّ ؟

حاولت إعلاء قدرتى . . دربت نفسى على استعمالها . .

وصلت بها أن تكون بليغة.. معبرة..

أعرف أن فرصتهم الوحيدة فى خروجي يومًا بدونها.. هى اللحظة التى ينتظرون.. ساعتها يكون السقوط.

يذهب عنى سر قوتى.. يحلقون لى رأسى.. ويجرجروننى خلف عرباتهم.. أسيرة فى المدينة. مدينة حبى وصلاتى.. قاهرتى.. مصرى.. أنا من حلمت يومًا أن أدخل مدينتى غازية.. أردد نشيدى.. وأقول صلاتى. أنا من تراءت لى فى طفولتى أحلام جان دارك.. هى قديسة حتمًا.. لكنى فلاحة صغيرة وأريد أيضًا خلاص أرضى.

أقسم أنى سمعت أصواتًا غريبة مثلها.. أصواتًا تملأ قلبى ثورة.. وتشعل جسدى بالغضب.

أحرقونى.. أو اصلبونى إذا أردتم ضحية لذنوبكم.. لكنى أسمع أصواتًا داخلى.. لست قديسة ولا كاذبة..

أنتم أيضًا تسمعونها.. الأصوات أخذت ترتفع.. ترتفع.. حتى لم يعد ممكنًا أن أظل ساكنة.. أصوات تنشق عنها الجدران.. وتتصاعد من الأزقة والشوارع.. ورأيتنى وسط الجموع الدافقة.. هو الجنون أو الصحوة.. لكنى أستجيب بنشوة للأصوات الهادرة.. أقول بينهم مثل الفلاح الفصيح.. فلاح مصر القديم..

تراءى لى حلمى القديم.. ولكن ليس حلمًا ما أرى.. هى الصحوة.. وأشعة الشمس حارقة.. وهذه الأجساد يفوح منها العرق والثورة.

أجساد ساخنة تنبض بالحياة.. ليست لأناس نيام. أو موتى

يحملون أكفانهم. ليست من أرض بور.

انشق البحر وابتلع السحرة مع حبالهم وعصيهم.. التصقت بالأجساد الدافئة.. زعقت بأعلى صوتى.. لسانى طائر مغرد.. لا أدرى حتى الآن أين فقدت التعويذة.. ضاعت وسط الزحام.. داستها الأقدام.. أو ذابت تحت حرارة نشيدى.

صـــورة

أعجبته هيئته.. رجع خطوات إلى الوراء لتتسع الرؤية. ابتسم لنفسه: هذا وجه خلق ليفوز – دعوة أمه منذ زمن بعيد «يجعل الله فى وجهك القبول». لم يعد يذكر أمه كثيراً.. مشغوليات العمل والحياة.. لكن فى حالات الشدة والضيق يجدها حاضرة. تتراءى له منذ الصباح – تحمل نفس نظرة التأنيب والعتاب – بقامتها النحيلة وطرحتها السوداء.

لم تكن قط لتخاف.. عمود الأرض والدار.. لا تعييها الحيل.. تجد دائماً وسيلة لسترهم.. تتقن كل ما تعمله.. معها يحس الإنسان بالسكينة والاطمئنان كأنما تملك بيمينها كل الأشياء.. لا تهتز أمام شدة أو مرض.. تجد دائماً أعشاباً بسيطة للعلاج.. تقول الطبيعة خلقت كل الدواء.. وتلك الحبة السوداء تشفى كل الأوجاع.. والاعتدال فى كل شىء هو الميزان.. وللجروح التوتيا الزرقاء..

قميص بلون السماء الزرقاء.. لا يدرى لم تلح عليه صورة أمه منذ الصباح.. يحس بها تتنفس من حلقه..

من الأفضل أن ينتهى ويغادر الغرفة. اكتملت هيئته.. آية

فى الذوق وتناسق الألوان.. طويل.. مهيب.. خلق ليسود..

لم تكن المرة الأولى التى يفوز فيها باكتساح.. يجلس على القمة.. يترك للآخرين.. ما يعينهم على احتمال الموقف..

وجدهم ينتظرونه أسفل العمارة. جاءوا يصحبونه إلى المقر.. حيث يتم فرز الأصوات. الكل يعرف النتيجة مسبقًا.

عاد ليستحم وينتعش.. ويرتدى ثيابه الأنيقة من أجل هذه اللحظة. يتقدم ويلقى بيانًا..

دائمًا على استعداد للكلام.. كلماته ينتقيها بعناية وينفث فيها روح المرح والفكاهة..

يفضل أن يذهب سيرًا على الأقدام بين هذه الكوكبة من الصحاب والزملاء.. الطريق بالسيارة يقطع اللوحة الجميلة.. كأنه يوم عرسه فى قريته.. يأتى الأصدقاء ليزفوه. تتبدى له الأم.. لم تكن راضية ليلة الفرح.. لا يعجبها أن يتزوج بابنة أغنى عائلة فى الناحية. دائمًا لها رأى مخالف.

تقول «الزواج يعنى أن تعرف إنسانًا مثلما تعرف نفسك.. إنه الدفء والاقتراب.. أن تقول أمامه كل الأشياء.. ويقول لك من تحب: أنا أفهمك.. يشارك الضحك والبكاء. أما الزواج من أجل الزهو والمال.. فحرام..

مهما يكن الأمر فهى (على قدها) فى الفهم والإدراك.. إنها أمه حقًا.. وحكيمة القرية والزمان، لكن لم يقدر لها أن تغادر حدود رقعة الأرض الضيقة.. هو الذى عايش الحياة فى الخارج ويحلل السياسات.. لا تدرى المسكينة أن الزواج معناه مصلحة.. ونفوذ ومعاملات.. إنه مثل الاتفاقيات بين الدول..

مجرد مصالح مشتركة..

تقف في مواجهته حتى كاد يقع.. تبدو منقبضة الوجه تزم شفتيها بشدة. هكذا تأتيه من حين لآخر في الأحلام.. أو عندما يقدم على مشروع جديد.. على نفس الهيئة تأتيه..

لا أحد يستطيع أن يقضي على الحلم. لماذا تلح عليه اليوم كالنذير..كانت تتفرس فيه دائمًا عندما يعود من الخارج..

تقول فجأة: ماذا فعلت يا ولد؟

ينكر في البداية..

تقول له: إحساسي لا يخيب.. انطق ماذا فعلت؟

ويخر معترفًا أمامها - حتى ولو كان مقلبًا لزميل له في الفصل. كانت تبين له الخطأ.. تقول له اعتذر عن فعلتك.. وأمام الجميع.. الكبير هو الذي يعتذر عن الخطأ.

وكان يهرب من لحظة الاعتراف.. يصلح الأمور على طريقته الخاصة - ومازال يفعل-

عندما كبر قال لها: ولكن الجميع يحبونني.. ويجدون وجودي ضروريًا. أشاحت بوجهها: المهم الاحترام..

لا ينجو من تأنيبها الصامت أبدًا.. يحاول طرد الصورة من داخله.. كبر عليها من زمن.. نصائحها الطيبة مضت معها إلى القبر.. بليت مع عصرها..

- تعالى عيشي عصرنا يا أماه لتغيري من رأيك.. من يعتذر ومن يعترف بأخطائه.. مسكينة أنت حقًا.. كل الناس تضع الأقنعة - حتى لا يعرفوا أنفسهم بغير قناع - تعالى واحضري لحظات النجاح.. الهتاف بالاسم والتصفيق. شاهدي صغيرك

وافرحي ولو للحظة به.. صار على القمة ويجبر الناس على الحب والاحترام..

إن هي إلا خطوات..

وينتهي الفرز اللعين

ويعلن النجاح..

الكل يقبل عليه.. يهنئونه - وقد يحملونه على الأعناق.. لا بل صار بديناً بعض الشيء.. لا يقدرون على حمله. نسي علاج حبة البركة السوداء. أمه حكيمة في طريقة العيش وعلاج الأدواء.. - ربما كانت ملهمة أو متقدمة عن عصرها - يعالجون الآن بالأعشاب والعودة إلى الطبيعة.. والإقلال من الطعام..

كله إلا الطعام.. من يقدر على المقاومة؟! كذب على نفسه في المرآة.. ضاق بشعور الامتلاء.

غادرته أمه وسط الضجيج وهدير الميكروفونات.. ماذا وسط الصراخ؟ لا يقبل أحد عليه.. وقع في هوة صمت ثقيل..

لم يستطع أحد أن يصل إلى غالبية الأصوات.. ليس اسمه من ينادون عليه ويحمل الهتاف..

لا يعرف اسماً آخر.. بدنه ثقيل.. ثقيل. لقد غدر به الزملاء.

نوبة مرح

أعــتـــرف . . كنت آخــذ «ســيف» ببسـاطه . أراه مهرجًا مشاغبًا . . أعتقد أن له من اسمه نصيبًا (لامع اللوجه . . حاد اللسان) . لديه رؤية مرحة ساخرة .

– تلك النظرة الخاصة هي ميزته ومصدر جاذبيته . . له قدرة على أن يجعلنا نضحك من آنفسنا وهمومنا .

قلنا يومًا : لو لم يوجد «سيف» في حـيـاتنا لاختـرعناه . . وجوده ضروري في محيط العيش والعمل (بدونه كيف كنا نستمر ونحتمل)

– بيني وبين نفسي كنت آراه هينًا . . حصر نفسه في دائرة الإضحاك والعبث .

كانت الجلسة جادة – لا نريد لسيف أن يأخذنا بعيدًا عن المنطق ووزن الأمور . . وتقدير الحالة . نريد لنتفق على مساندة زميل لنا في الانتخابات .

بدأ سيف جولته منذ دخل القاعة : نريد أن ترأس الاجتماع أكبر الأعضاء سنًا . تقدمت «بشجاعة» كي أقطع على سيف فرصة الهزر والعبث .

قلت : لنبدأ بتقدير الموقف الذى نحن فيه . . التركيز على

الإيجابيات.. دراسة تاريخ الشخصية؛ نأخذ كفة الترجيح والموازنة.

صفق بيديه طرباً - «كلمات كبيرة قوى.. انتخابات مجلس رئاسة العالم».

عرفنا أنه بدأ.. وشىء لا يستطيع أن يوقفه عن السخرية والمرح.

قلت بجدية - وحاولت معه الغضب - الأمر مهم وحيوى ولا يحتمل التهريج (اعترف: حاولت إخراجه من القاعة مؤقتاً) - لولا صياح زميلة اندفعت كالعاصفة.

- من تمنحونه بركات تأييدكم كان بالأمس مجتمعاً بمديركم

- كلنا نعرف كيف وصل هذا المدير إلى مقعده (وكان يجلس مقاعد للسمع لنا) ثم قفزته المروعة من أدنى السلم الوظيفى إلى كرسى المدير ومحاولته الخبيثة أن ينال من الأكفاء المخلصين بيننا.

هنا تحولت الغرفة إلى خلية نحل ثائرة.. يعلو طنين العبارات وتهوم اللعنات والغضب..

صاحت الزميلة : وهو ما هو كالحية الرقطاء.

قاطعها سيف: أعترض.. أختلف معك..

الحية لها كبرياء.. نوع من الهيبة فى مظهرها و فعلها..

الرجل والحق يقال مجرد من أى كبرياء.

أغرق الجميع فى الضحك

(عار من الصدق والموهبة.. هجرته العزة والهيبة - جزاء وفاقًا له)

صاحت المتحمسة من جديد: معك حق.. نبات متسلق

- بل هو حشرة

يلتزق وجوده بدماء الآخرين

- «ونفوذهم».. هكذا علق سيف

(يحدثنا بحارنا الجميل عن سمكة صغيرة لزجة تكمن فوق رأس القرش الرهيب.. وتتغذى من إفرازاته وبقايا شراهته.. وتعمل في المقابل «مرشداً له». أما ساعة الخطر فهي تفر لتلتزق بقرش آخر كبير).

سيف يقف فينا خطيباً.. يصدر أصواتاً من حنجرته شأن من يستعد لإلقاء بيان أو موعظة.

يعود للقاعة هرجها ومرجها..

سيف يحاول عبثاً أخذ سمت الجدية والوقار..

- يا جماعة، تركنا القضية الأساسية.. وانقلبنا إلى مسرح العبث.

- وأنت الذي تقول هذا؟

- وما هو الانقلاب الذي حدث

صفق بيديه: استمعوا إليّ.. أنصتوا..

كنا نناقش قضية الانتخاب.. الآن تتحدثون عن المدير.. «ومآثره» (لا يقدر على نفسه.. في عز الجد.. يغلبه طبعه.. ويلعب بالكلمات ونضحك من المفارقة)

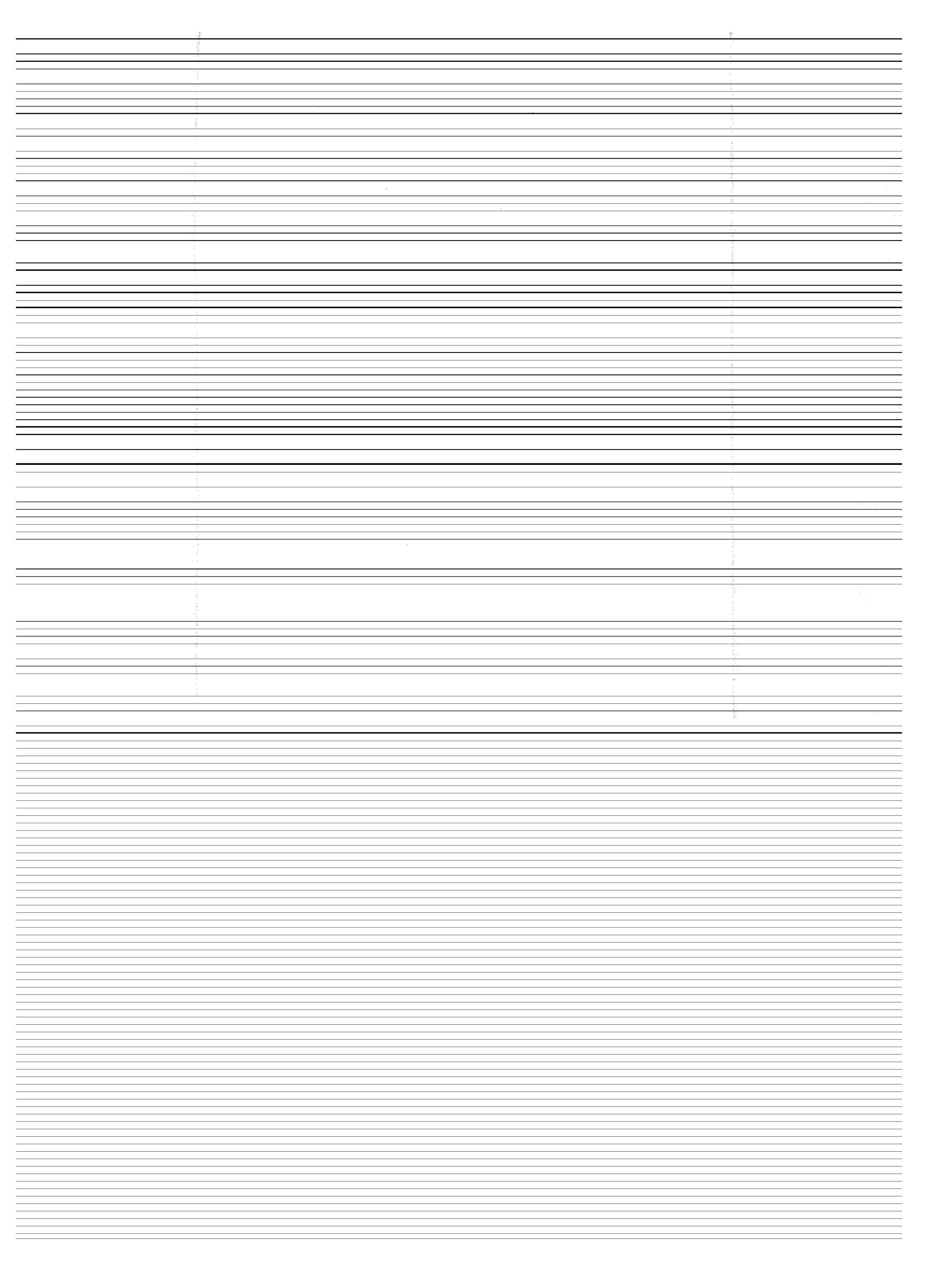
زعقت السيدة العاصفة: بل نحن في صلب الموضوع.

- الذي تريدون اختياره يجتمع بمن ترفضونه!

يحرص على «صوته» وتأييده وبذلك يسيء للمهنة والعمل.

دب النشاط «والزن» في خلية النحل مرة أخرى

- باعث الرجاء.. مع خيبة الأمل



الأستاذ

الأضواء.. الشهرة.. الإثارة.. رائحة الفضيحة.. كل الأشياء التى كان يعليها ويمجدها تحيط به الآن.. لكنها تفزعه وتروعه.. تطوقه كالحيات.. تعتصره بقسوة وتحيل لون الدنيا أمامه إلى سواد.

الأشياء طعمها مختلف.. وقع الكلمات داخله له رنين خاص.. الكلمات تبدو كالجثث الميتة تتناثر هنا وهناك. كلها تحمل عليه.. وتدينه.. وتلصق به ألعن الصفات..

كلمات تعود أن يستعملها كثيراً.. ويزين بها صفحات طوالاً.. ويدسها لآخرين. واليوم تتخذ طريقها إليه تقترب منه.. تلفه وتتلوى حول عنقه.

ودون أن يدرى رفع يده وأخذ يتحسس رقبته.. هل هذه نهاية الحياة.. بالأمس كان يحس ثقلاً فظيعاً فى قلبه ورأسه.. هل مات.. وجاء يوم الحساب؟!

الحساب، والعقاب، لعبته اللذيذة التى كان يصلى بها الناس.. انقلبت الدنيا إذن وأحاطت به الاتهامات.. يفتلون حبالهم لتطوق رقبته.. لو أنه فقط ينسى رقبته، وتكف أصابعه عن تحسسها.. ميتة بشعة لا شك.. لم يفكر فى ذلك من قبل..

ما ذنبه.. كثيرون حوله كانوا من الأغبياء.. مستعدين أن يصدقوا أي شيء.. وهو عملاق فريد وكأنه اكتشف لعبة مسلية.. واحترف الخداع..

يكتب.. ويحب.. ويتحمس لأفكار كثيرة.. ويكذب في كل الحالات..

وهم يضعونه فوق أعلى قمة لديهم.. وشهرته تصل إلى عنان السماء. كل الأجهزة تترنم باسمه .. الشباب يتطلعون إليه كرمز للطموح.. والنجاح..

وبرامج المرأة تتساءل عن عشقه لمهنته.. ومزاحمتها لها في قلبه.. حتى برنامج الأطفال لم يدع الفرصة لدعوته.. رجاء أن يفصح لهم عن سر هوايته وموهبته. ويومها قال كلامًا كثيراً.. الموهبة تسرى في دمه منذ ولادته. كان صغيراً جداً عندما وقع في هواية الفضول.. والتلصص على أخبار الحي والجيران..

معلوماته يستقيها من الخدم، ومن الشائعات.. ويحرر جريدة حائط.. ويسودها بخط يده.

كل الفنون والآداب بقيمته تعترف.. ويطلقون عليه لقب «الأستاذ».. وهو «السيد» أينما حل.. الأضواء تحيط به من كل جانب وتطوقه.. والدعاية تعلن عن الرجل الناجح أسطورة العصر والأوان..

اليوم الموقف مختلف.. نفس الأشياء.. الكاميرات والحدقات السود، والمصابيح المشعة.. والاهتمام.

الجالسون هناك على المنصة رآهم كثيراً.. عاملهم بترفع وكبرياء.. لو سعوا إلى مكتبه يوما. لطالت بهم ساعات

الانتظار.. وهو الآن ينتظر كلمة ينطق بها كبيرهم..

وغشت عينيه الأضواء.. وارتفعت العيون السود القاسية تسجل صورته.. فقط لو أن لديه القدرة على الابتسام.

أنوار كثيرة.. فضيحة.. عرق.. منديله أسود، وقذر من كثرة الاستعمال. العيون صامتة قاسية.. الصحافة مهنة العذاب. يقولون شيئًا الآن عن الذنب.. والعقاب.

ينصت، فقط لو أن واحداً يؤكد له هل هو ميت أم حي.. قد يكون الأمر كله عبارة عن كابوس لعين.. لو يحظى بنظرة عطف أو إشفاق؟.. لا أحد بجانبه.. ليس معه مخلوق.. أين الأتباع والمريدون، أبناء مدرسته الأعزاء؟.. أين هم الآن؟!

في الظل يجلس رجل عجوز، خلف الأضواء.. وجه ميت لا يوحي بشيء، يحس لسعة اللمبات، فيما مضى كان يقول «هذا ثمن المجد».. «ضريبة الشهرة»..

الرجل يجلس في الظل.. بعيداً عن الأنوار.. ملامحه ليست غريبة عليه.. أين رآه.. وواجه نفس النظرة الحزينة الصامتة.. والأنف المدبب وزمة الشفاة.

رآه.. رآها وهي ترفع وجهها إليه.. وعيونها الحزينة السود.. كان يضحك.. ماتت الضحكة بين شفتيه.. شيء ما في حزنها كان أقوى من سخريته ومرارته. الرجل يعرق مثله.. منديله أسود وقذر.. لقد تذكره الآن.. الزميل العزيز «الذي يعمل في الأرشيف.. منذ عشرين عاماً..»

البنت لم تكمل هذه السن.. في الثامنة عشرة فقط.. حلوة وناضرة.. رآها أمام الأسانسير.. كثمرة الفراولة.. حلوة

وشهية.. يلعق شفتيه للذكرى.. ونظرة الحزن فى عينى الرجل قاتلة. يتذكر الآن رائحة الفتاة.. طعم البراءة والسذاجة.. وهو يمتص البراءة بعينيه.. شفتيه وجميع حواسه..

ويسقط عنها براءتها.. وأصبحت حبة الفراولة تفاحة ناضجة.. وهكذا هو دائمًا.. ينال من فاكهته حتى يصيبها العطب.. وتتطلع شهيته ناحية ثمرة أخرى..

كانت أيامًا حافلة. لم يصدق عندما رآها.. إنها ابنة هذا الرجل العجوز. كان الرجل موهوبًا ما فى ذلك شك.. لكنه ثقيل الظل.. وعنيد. ولديه أفكار.. وهو يجيد معاملة هذا الصنف من الناس.. لا يسرحه.. ولا يدعه. ولا يعطى له مرتبًا يقيم أوده.. لكنه يقتله ببطء.. وبهدوء.. إلى أن يلقى به إلى زوايا النسيان.. وتجتر سلة المهملات أفكاره وأحلامه. ويتحول الرجل إلى أرشيف.. مجرد أوراق ذابلة وصفراء..

لم يصدق أبدًا.. أن العيون السود.. والجسد الفاتن الصغير ملك لهذا الكئيب الباهت.. بحكم الأبوة. بعد لحظات يستمع هو الحكم عليه.. مهزلة ولكن ما أقساها من لحظات.. تصعد بك إلى قمة القلق والعذاب..

سألها لماذا اختارته لتصعد إليه. وقالت الجميلة: «أبى»..

وتنهد «لن تكون مشكلة أنه أبوك»

وصعد مرة أخرى معها.. أوصلها بنفسه إلى الدور المطلوب.. ووقف يسند لها الباب. ويتأملها وهى تذهب بعيدًا..

والرجل فى دهشة لكلمات ابنته.. وتلطف الأستاذ معها..

وإنسانيته. ويقطع رنين التليفون عليه دهشته.. تزداد حدة الرنين.. الأستاذ على التليفون..

«هيه كيف حالك.. منذ سنوات لم أرك.. عيب يا رجل.. مكتبى مفتوح لك دائماً.. بعد هذا العمر الطويل.. والمجهود الضخم تتردد فى طلب علاوة؟.. قدمت طلبك منذ أسابيع - لم أره بالصدفة إلا الليلة.. ضاع فى زحمة الأوراق الكثيرة على مكتبى.. لماذا لم تشرفنى بنفسك؟

لا أؤخر لك طلباً.. أنت رجل طيب.. وأنا مقدر لخبرتك وجهودك.. تطلب عشرة جنيهات فقط؟.. لا.. تستحق عشرين فى الحقيقة.. ولن تغلو عليك الثلاثون. سأكلم الحسابات الآن، انتهى الأمر.. تستطيع أن تقبض مرتبك أول الشهر بزيادة ثلاثين جنيهاً..

وعلى فكرة.. هل وصلت الكتكوتة الصغيرة.. طلبت لها حاجة ساقعة؟ شىء جميل أن تكون لك ابنة فى مثل هذه السن.. من يراها يظن أنها فى العشرين.. طالبة جامعية أيضاً؟.. عظيم للغاية.. موهوبة والله هذه البنت.. ومتفوقة بلا شك..

اسمع.. لماذا لا ترسلها الآن؟.. أتحدث معها لأعرف إذا كانت تصلح للعمل معنا هنا.. نعم.. نعم.. الآن».

وصعدت البنت.. ويدور فى الحجرة حديث من لون آخر.. هى تريد أن تتراجع.. تتماسك.. لكن الإغراء أقوى منها.. الكلمات الخبيرة.. والتلميحات المدربة.. وشباك الغزل تحيط بها وتجذبها..

«أنت ولدت فى الطبقة الخطأ.. القصور والثياب كلها

خلقت من أجلك.. مراكب الشمس تعلو بك.. وتجوب لك الآفاق.. الشمس نفسها تخجل عندما تشرقين أمامها.

أنا اليد الحانية.. أزفك إلى طريق المجد.. والشهرة والأضواء.. أجعل منك - إن أردت - فاتنة السينما.. رائعة الدنيا.. نجمة الصحافة..

كلها أشياء سحرية أمتلكها.. وأجيد استعمالها.. وأضعها تحت قدميك..

أنت ملكة متوجة.. لا تعرفين قدر نفسك.. لم يكتشفك أحد بعد.. تعيشين في مقبرة.. مع عجوز كئيب.. ذى مبادئ وأفكار.

رجل طيب.. أعرف ذلك طبعًا.. ولكن لابد من التمرد..

الجامعة والثقافة.. والعمل.. كلها أشياء لا تنفعك.. ولن تصل بك إلى شيء.. صدقينى ولك عبرة فى أبيك العظيم.. ما هو.. من هو؟

لم أقصد احتقاره.. أنت ابنة طيبة.. ولكن أسلوبه خطأ فى الحياة.. لا يعرف كيف يصل.. يتخفف من أحماله ومبادئه التى تشده دائمًا إلى الخلف .

اطمئنى سأعرف كيف أعوضه.. الأسرة كلها ترفل فى السعادة من أجلك.

وتدور بها الغرفة الفاخرة.. ويعلو غرورها.. وتجردها نظرات الأستاذ من عقلها ومنطقها، ومقاومتها، وتتبعه إلى الخارج، يهبط الأسانسير، وتنزل إلى العربة، إلى الدنيا الحافلة التى وعدها بها..

ويضحك.. رغم ما به.. وتفتح العدسات السود حدقاتها.. ويلسعه النور.. يسجلون ضحكته.. أوغاد يتبعون أنفسهم فى الغد فى تفسير ضحكته.. علمهم الكثير من خدع التصوير.. وهم يرقصون حوله الآن وكأنهم قرود..

ومرة أخرى ترتفع ابتسامة شاحبة.. نسيت الفتاة أن تمر على والدها.. خرجت دون أن تستأذن منه.. ولم يستطع الرجل أن يرفع عينيه فى وجه الأستاذ.. بعدها..

ظل حزيناً.. صامتاً.. كما يجلس الآن تماماً..

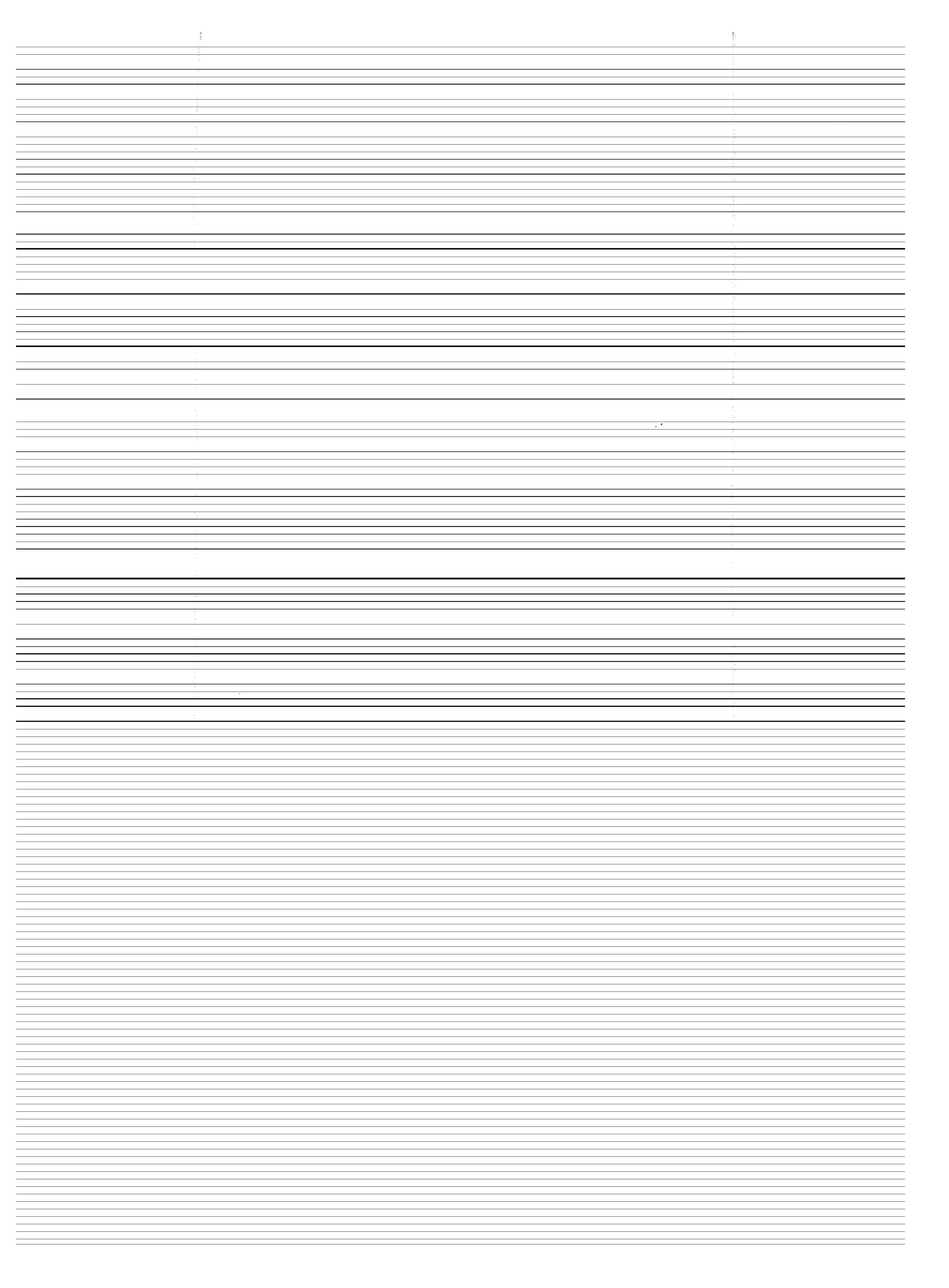
لماذا جاء.. ومن أجل من الحزن.. الابنة.. الأستاذ.. هل يتشفى.. أم يعذبه أو يشهد ضده.. لا أظنهم يحاسبونه على هذه الحادثة أيضاً..

حياته حافلة بمئات منها.. كانت أياماً ولحظات رائعة. وبعد لحظة نطق القاضى بالحكم «مذنب».. ودوت القاعة بأصوات غريبة ومتداخلة..

ما معنى كل ذلك؟.. وهل هو ميت أم حى؟

ويجفف العجوز عرقه.. منديله أسود وقذر.. ويتحسس رقبته.. تعلو أصابعه إلى جبينه.. يزيح قطرات لزجة.. باردة..

ماتت الكلمات على شفتيه.. ما أظنه يستطيع أن ينطق بعد الآن.. ويد رهيبة قوية تسحبه بعيداً..



حلمت دائمًا بالإبحار إلى الجنوب..

نقلع إلى الصعيد الأعلى.. وحتى الجذور..

ملاحنا العربى القديم يمثل الخروج بالمركب مثل أداء الفريضة.. يتطلب طهارة وإخلاصاً فى النية..

وأنا أسلم وجهى إلى النهر.. مثل أجدادى المصريين القدماء.. أجد فى جوفه «التطهر» والتبتل والحكمة.

تراودنى الرغبة منذ أن كنت صغيرة.. وقلمنا الرصاص يتبع سير النهر.. وسريانه فى الجسد العظيم.

لم يتسع بنا العمر لأبدأ الرحلة معك. رغم كونك ملاحًا ماهراً، ومن صميم عملك ولوج أودية البحر.. واجتياز الأغوار.. ودخول الموانى.. والمناورة مع الجزر والمد- كنت تقول بتواضع جم.. ونبرة خشوع:

- مع ذلك أشعر برهبة أمام النيل..

(المصريون القدماء.. كانوا حكماء وشعراء عندما قدسوه.. جعلوه رمز معبودهم الواحد.. الوهاب.. رب الخير والعطاء)

- أقاموا عرش الله على الماء حقًا.

وسواء أكانت الرحلة بالروح أو بالجسد.. فى الواقع.. أو

على متن الخيال..

رؤيا صادقة.. أم أحداث حقيقية تجرى فوق الماء أو فى البر..

دعنا نجدف معًا فى بحر النيل..

تعالى إلى قرية «الطيب صالح».

نعرفها بالطبع.. نعلم الكثير عنها.. دروبها ومساكنها.. وبها الدومة «دومة ود حامد».. مازالت كما وصفها لنا «شامخة برأسها إلى السماء.. ضاربة بعروقها إلى الأرض.. ترسل ظلها من هذه الربوة العالية عبر النهر».

والقرية الأخرى - التى بها الشيخ محجوب ونخلته المباركة «الأساسق ذات البنات الخمس.. وقد قامت فى وسطها النخلة الأم - ممشوقة تتلاعب بغدائرها النسمات الباردة».

أرأيت ابنتنا وهى تقرأ اسم «الطيب صالح».. وتسأل فى دهشة بريئة:

- أتعرفين من الكتاب كيف يصبح الإنسان طيبًا وصالحًا؟

- لم تبتعدى يا ابنتى عن الحقيقة كثيراً.. فهى وظيفة الفن أيضاً.

- هو كتاب دينى؟

حسبته كذلك ولأنى أقرأه بإمعان.. فى ركنى البعيد.. وخلوتى الهادئة)..

- ممكن اعتباره كذلك.

فغاية الدين العمل الصالح.. وحياة طيبة - وهو كتاب دينى بهذا المعنى - لأنه نفس هدف الفن الصادق.

أتدرى أصحب الصغيرة فى رحلتى.. ورثت عنك حب

الرحيل والإقلاع.. وحب الماء..

أريها الدومة.. ومثلث الخصب.. «والأساسق» نبتة الشموخ والتطلع إلى السماء.. وصبرنا الممتد إلى الأعالى..

قطعت الصغيرة توارد الصور إلى مخيلتى:

– لماذا الفلاحون فى قريتنا – يقولون «بحر» النيل.

– هو بحر فى نظرهم.. هكذا يقولون عن أى شىء واسع ورحيب..

يقولون عن الرجل بحر.. وعن العلم.. والجود.

أحدثت نقلة سريعة أخرى:

– فلاحة كانت تغنى لابنها – وهى تغنى للنيل.

(لابد لحن «سيد درويش».. وتصاعدت من حولى الموسيقى.. هو الذى حول عمل الصيادين والحمالين والمتعبين إلى موسيقى وغناء).

ثم وكأنها تتبع نوعًا غريبًا من تداعى المعانى:

– كيف حفظت ألحان سيد درويش؟

– يخيل إلى أننا استمعنا إليها منذ اللحظة الأولى من الميلاد

– والسمع هو الآية الأولى فى خلقنا.. ربما كانت أمى تهدهدنى بها.. وتترنم لنفسها بعد عناء يوم عسير.

موسيقاه فاضت.. وسرت حتى الجنوب.. وبلهجتهم المحببة يقول:

(سرقوا الصندوق يا محمد – لكن مفتاحه معايا)

– ترى من هو محمد.. الذى يخبره بالنبأ الغريب.

والنكتة فى الأمر أن المفتاح معه.

المفارقة المضحكة بين الأخذ عنوة واغتصابًا.. وبين العثور على المفتاح. محمد في الجنوب أم في الشمال!!

وصاحبه يبعث بالخبر مع سريان النيل.. خلال التيار.. ويسرى البث إلى كل أوصال الأمة..

الكل محمد.. وكلنا نكنى به في الوادى الخصيب.

المهم أن النبأ - الذى لا يختلفون فيه - أننا أمام حادث سرقة كبير.. الجسد الهائل للأمر يضمه جدار أو خريطة.. والمفتاح معنا لا يزال..

ليست «مزحة» بعد أن تمت الجريمة.. وجود المفتاح لدينا يعنى الكثير..

ولابد لنا أن نفكر جميعًا.. ساعة رسو السفينة.. نتدبر الأمر.. حتى - ولو كانت المسألة صندوقًا صغيراً لدى أحد منا.. أم وطنًا يضم بعضنا.. أو كنزاً مخبأ في باطن الأرض..

حقًا يستطيع الفنان بحسه أن يصل إلى حد النبوءة.. هى أغنية ونبوءة..

يا أهلى في الجنوب.. عزوتى وعشيرتى.. جاءتنا طعنة - نحن العرب -(الأنغام تصدح والطيور لم تهجر سماءنا.. ولا يزال المفتاح معنا - رغم كل ما حدث - فانظروا ماذا ترون.. أشيروا على جميعًا.. أعرف السر.. المفتاح مخبأ بين الناس.. بأعيننا وقلوبنا.. لا تهم أنباء المذبحة.. صندوق - ذبائح - فروا به.. لكن مازلنا أحياء - حتى بعد ذهاب أحبائنا.

فينا حياة.. وعروق تنبض.. والمفتاح..

أحمل معى عدداً من «المفاتيح» - على سبيل الرمز والهدية

- أحدها «ذهبى» صغير لزوجة صديقى عبدالله..

ترى أين أنت يا صديقى؟! انقطعت أخبارك وزياراتك لنا - فى القاهرة - (نفكر بك دائماً.. كنوع من تداعى المعانى.. أو الأحداث) دائماً يتحدد موعد وجودك بيننا.. علامات كثيرة استدعت مجيئك.. لكنك ظللت غائباً!

- المرة الأخيرة.. صحبت معك زوجتك.. حملت الخبر البهيج - ذاته وأتيت..

وضمت إلينا «مجموعة الأصدقاء والشعراء.. وبحارى الحبيب نطق «شعراً» مثلنا.. «هى عروس النيل».. كان من قبل يضحك منا.. يقول لم أر قوماً «يتعاطون» الشعر مثلكم..

- نستعين به على الحياة.. (بل نريد لنجعله والحياة شيئاً واحداً).

صاحبك «عبدالصبور» كان مرحاً.. متألقاً.. تلك الليلة - على غير عادته.

ورغم أنه ينشد قصيدته «زهران» - ومع تعدد دواوين الشعر.. واستنفاد أغراضه - نستعيد زهران مرات ومرات..

وتهتف معه «كان ضاحكاً ولوعاً بالغناء».

ولكن يقطر أسى صوت «كمال ناصر» - مات زهران وعيناه حياة- (ولا ندرى أنضحك أم نغنى)

وتعود لتصعد فوق كرسيك.. كأنما تؤدى إشارة سحرية لنعلو فوق حديث الموت والمأساة..

«مات زهران صديقاً للحياة».. وتتسع دائرة «الجرح.. والجدال» وتدلى رأس زهران الوديع.. ويرتفع صوتك.. كلنا

هنا هذا الفلاح.. من دنشواى.. سندبيس.. الجليل الأعلى.. ود حامد..

كلنا زهران «ولوعًا بالغناء.. وسماع الشعر في ليل الشتاء»

- صوتك رائق عذب.. كأنما تتقدم به لعروسك..

تطلعها على بعض نفسك.. تصحبها لأعماقك المليئة بالحب والوطنية والشعر.. ضحكنا.. مرحنا.. ثم بكينا..

- قالت عروسك شيئًا باهراً: لم أكن أتصور أناسا مثلكم يبكون عند سماع الشعر.. (نبكى ما نحن فيه.. أم ما هو قادم.. مقولة أم نبوءة)؟

(مات شاعر فلسطين.. فاتحًا ذراعيه هكذا - كأنه المسيح - وربما ليودعنا.. أو يذكرنا - ومات «صبور» أخيراً.. وغاب بحارى شهيداً..)

وحيدث زلزال فوق أرض العرب.. وسمعت عن موت الشاعر.. والمحارب وشهادة الربان.. مع ذلك لم تجئ.. لم تكتب.. لم تبعث رسولاً..

كيف؟ صمتك يحوى نذيراً.. وأمراً مستطيراً..

لا تقل لى.. لم تذهب روحك إلى بارائها..أنباء الموت تنتشر بسرعة خطيرة.. تأخرت.. تغيرت؟!

لماذا؟ رغم الأحداث.. وموت الصحاب وألم الفراق.. لا أجدك بيننا

- لم أطق صبراً، وجئت إليك صديقى بزورقي.. وكأنى إيزيس تبحث عن أشلاء غالية وثمينة.. تود لتضم الجسد الغالى.. وتذرف الدمع.. لكن الرحلة فى «بحر» النيل حانية

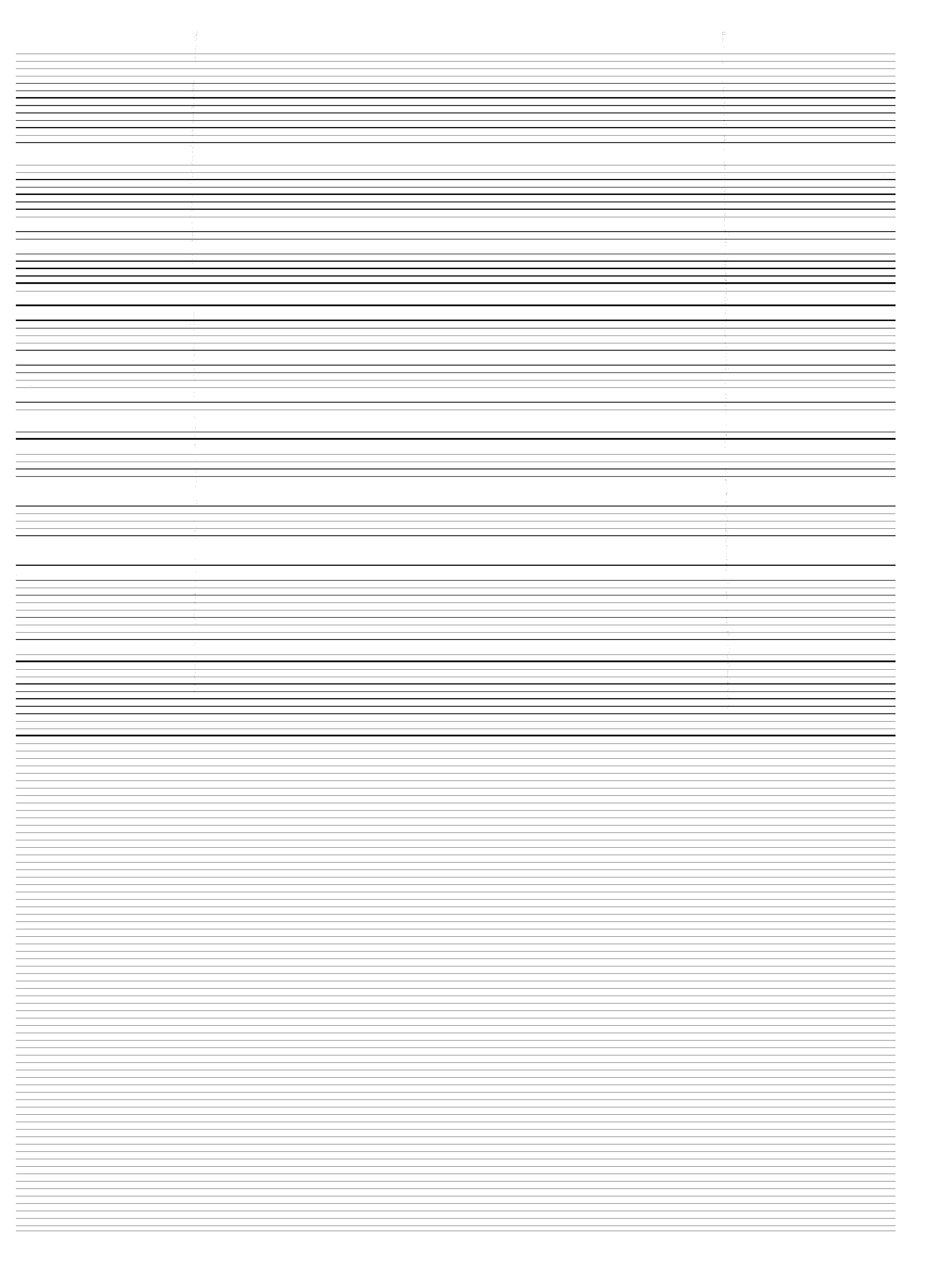
ومثيرة.. أتعرف بمقدمي؟! انتظرني على الشاطىء.. ولعلها تأتي معك عروسك الجميلة..

قل لي: هل غيابك يتصل «بالمفتاح».. البحث عن محمد؟! زورقي محمل بالأرواح الطيبة الشهيدة.. نعقد في المساء مجلساً.. ويكملون حديثهم.

(لم نكمل حديثنا.. ذوى قبل أن يفرغ الحديث بيننا..)

ابنتي معي. ورثت عن أبيها حب الماء.. والتطلع إلى الأمام.. صديقي عبدالله.. إذا حدث وتأخرت عن موعدك.. ومشغولة - في عملها -زوجتك، لا تنس تبعث لي «عبدالله الصغير» وهو آخر ما سمعناه عنك من أنباء.

نعم يجب أن يتعرف إلى نور الصغيرة.. ويصحبها إلى قريتك.. لابد أن يصبح أولادنا أصدقاء.



الفنار

كـان حلمًـا أن أجـد نفـسى فـى طريقى إلى الفنـار.

الجزيرة الصخرية تبدو مثل كوكب عسير مجهول..

تركنا السفينة راسية فى العمق ونزلنا إلى زورق صغير..

وجدتنا مثل نقطة صغيرة على الماء والسفينة الأم رابضة شاهقة وصامدة - ونحن نبتعد عنها.

قلبى يخفق بشدة. إحساس طفلة ضاعت من يد أمها.. وتاهت فى مدينة غامضة.

قلبى تتراقص دقاته بين الرهبة والفرح. أبحث عن مغامرة فى الماء وبين الأجواء الصعبة البعيدة.

كان بانتظارنا على المرسى رجال ثلاثة. ظلت قامتهم تطول وملامحهم تبين حتى اقتربنا منهم.

(وقلت فى نفسى: يالشجاعة الرجال. يتركون المدن والأهل والأصدقاء ويعيشون كالزهاد والرهبان، من أجل مهمة صعبة وعمل مهم).

السفينة هى شريان الوصول والحياة. ينتظرونها كل شهر كأنها رسول محبة وبعثة أصدقاء. تصلهم بجو العيش ودورة

الأيام وأحوال الناس.

يسمونها «العايدة» لأنها تعود إليهم وتبعث فى أوصالهم الدفء والحركة والحياة.

رحبوا بنا.. وكأننا رواد فضاء يهبطون الجزيرة الموحشة، وهم بحاجة إلى بشر مثلهم - إلى سماع صوت إنسان.

قبلوا الربان. احتضنهم معاً. فى الوسط كبيرهم يشب على أصابعه ليصل إلى كتفه ويقبله. والفنار يرتفع من خلفهم على صخرة الأخوين شاهداً على حاجة الناس إلى الحب والاهتمام.

جلجلت ضحكة الربان. سألهم مازحاً: أيوجد خلاف أو خصام؟

ابتسموا وتركوا حركة الترحيب والشوق والإشراف على راحتنا تنطق بالألفة والانسجام.

دهشت للسؤال: وهل يمكن الخصام؟

فى منفى بعيد، وجزيرة معزولة وسط الشعاب المرجانية.. هل يوجد من سبب يدعو للخلاف والهجر والخصام؟

حكى لى الربان أن مأمور الفنار يميل للصمت بطبيعته - وهو أب لشهيد. سعى لهذا العمل، كمن ينذر صوماً أو صمتاً ويجد خلوة للعبادة والمناجاة. عمل قريب من روح الجندية وفعل الاستشهاد.

لم يستطع الصمود أمام حزن الأم لفقد وحيدها. آثر أن يترك لها حمل البنات ولتشغلها المسئولية عن لهيب الأحزان، أما الشاب - وقاطعته: أظنها المرة الأولى فى العالم التى يتقدم فيها شاب لعمل حارس فنار. الشاب مليء بالحيوية والنشاط -

ما الذى يدفع به إلى العزلة والاعتزال؟

- هو قريب من زوجة المأمور وصديق الشهيد. حدثت له «حالة» هو الآخر لفقد صديق عمره - ولانتظاره فرصة العمل لسنوات.

قالت له الأم: اذهب للعمل معه «مؤقتًا» فى الفنار..

صمت لحظة وسالت الدموع بصوته: الأم حزينة وحكيمة. تخشى على زوجها الوحدة.. خافت أن يموت وحيدًا. أرسلت معه قريبها - لتبعده هو الآخر عن مرارة الفقد وقلق الانتظار. ألقت به إلى العمل الشاق ليتدرب على الصبر والاحتمال ويكون بجانب رجلها كابن له يرعاه.

(لم أكن أتصور أن القائد العنيف الذى يتحدث عن جسارته البحارة وعمال الموانى والفنارات - يمثل هذه الرهافة من الحس).

استمع إليه بانبهار:

والشاب طموح وفنان. فرح باكتشاف جو جديد وأخذ معه الأوراق والألوان. كان يستغرق فى الرسم بعد وردية العمل، ويتجنب الحديث حتى لا يصل إلى الموت أو لحظة الاستشهاد.

(أستطيع أن أتصور حكاية «الثالث» - هارب من قصة حب أو فشل زواج، ويكتم سره).

- الثالث يحس بوحدة داخل الوحدة ذاتها..

هو الغريب بين أقرباء - وطبعًا سيشهد كل منهما للآخر عند أى خلاف. لذا لزم الصمت. يتسلى بصيد السمك. أحيانًا يأتيه الرزق وفيرًا. ومن فرط السأم - يلقيه فى البحر مرة أخرى.

جاءوا بصينية كبيرة وأكواب الشاى.

- الشاى له طعم خاص ومذاق أحلى مع الأصدقاء.

أشار الربان أنه اكتشف مأساة الصمت والخصام صدفة عند زيارة للفنار ووجدهم متباعدين فى جلسة الشاى.

- خيرتهم أن نعقد مجلس صلح أو محاكمة.

قلت لهم: أنتم فى مهمة عظيمة.. تسهرون وتضحون من أجل أن يظل نور الفنار هاديًا ومرشداً. ومع ذلك - لا ينفذ النور داخلكم.

تعملون على فنار الأخوين، فى ظل معنى الأخوة - حتى من جذور الصخر - وتنسون أنفسكم ومعنى المكان؟ تتخلون عن زينة الحياة لنشر رسالة مصر بالمحبة والسلام - ولا تقيمون السلام؟

ولأول مرة يبكى الرجل الكبير. يبكى بصوت عال يزلزل القلوب والأحجار..

استمتعنا بوليمة الغداء.. ومدت صحاف الأسماك، وتفتحت شهية الحياة. وصاحبنا يردد «أنا عامل فنار وفنان».

ويعاكس زميله: لست وحدك الفنان..

تعددت دورات الشاى. وعند وقت الرحيل قال المأمور للربان

- ستأخذ ابنى معك هذه المرة.

مرت لحظة شعرنا برهبة. أشار إلى الشاب: أضاف إلى موهبته فنًا جديداً. صنع غرفة نوم لعروسه.. ورسم الكثير من اللوحات.

اعتدل وقال: أما المفاجأة الحقيقية - فهى لوحة الشهيد.

وقام يبحث عنها وسط الأوراق - رغم حرص الشاب على إخفائها. سطعت ابتسامة كومضة نور الفنار: أنا فخور يا بنى.. والحب لا ينقطع بالموت - وهو معنا يبارك صديقه وعروسه.

تنفسنا بعمق. ملأ الهواء حبات القلب. قلت عندما مست قدمى الزورق فى رحلة العودة.. إلى «العايدة»

- هل تصلح امرأة للعمل بالفنار؟

وتأمنى الربان وهو يبتسم.

الفهرس